مجلة الجامعة الإسلاميّة للغة العربيّة وآدابها

مجلة علميّة دوريّة محكمة

الجزء ٢

العدد :١٩
يناير - مارس ٢٠٢٦م

مجلة الجامعة الإسلاميّة للغة العربيّة وآدابها الجزء ٢


١٣٨
١٩٦


بسم الله الرحمن الرحيم

معلومات الإيداع

في مكتبة الملك فهد الوطنية

النسخة الورقية:

رقم الإيداع ١٤٤٣/٣٢٨٣ بتاريخ ١٤٤٣/٠٤/٠٢ هـ

ردمد: ١٦٥٨-٩٠٧٦

النسخة الإلكترونية:

رقم الإيداع ١٤٤٣/٣٢٨٤ بتاريخ ١٤٤٣/٠٤/٠٢ هـ

ردمد: ١٦٥٨-٩٠٨٤

الموقع الإلكتروني للمجلة

http: //journals. iu. edu. sa/ALS/index. html

ترسل البحوث باسم رئيس تحرير المجلة عبر المنصّة الإلكترونية

البحوث المنشورة في المجلّة تعبّر عن آراء الباحثين

ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

جميع حقوق الطّبع محفوظة للجامعة الإسلامية

هيئة التحرير

د. تركي بن صالح المعبدي
(رئيس هيئة التحرير)
أستاذ النحو والصرف المشارك بالجامعة الإسلامية

د. خليوي بن سامر العياضي
(مدير التحرير)
أستاذ تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها المشارك بالجامعة الإسلامية

أ.د. عبد الرزاق بن فراج الصاعدي
أستاذ أصول اللغة والمعاجم بالجامعة الإسلامية

أ.د. عبدالرحمن بن دخيل ربه المطرفي
أستاذ الأدب والنقد بالجامعة الإسلامية

أ.د. الزبير بن محمد أيوب
أستاذ أصول اللغة والمعاجم بالجامعة الإسلامية

د. مبارك بن شتيوي الحبيشي
أستاذ البلاغة المشارك بالجامعة الإسلامية

أ.د. محمد بن ظافر الحازمي
أستاذ اللسانيات بالجامعة الإسلامية

د. عبد المجيد بن عثمان اليتيمي
أستاذ أصول اللغة المشارك بالجامعة الإسلامية

أ.د. عبدالله بن عويقل السلمي
أستاذ النحو والصرف بجامعة الملك عبدالعزيز

أ.د. علي بن محمد الحمود
أستاذ الأدب والنقد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أ.د. عبد الرحمن بن مصطفى السليمان
أستاذ اللّغات والآداب السامية والترجمة بجامعة لوفان – بلجيكا

أ.د. علاء محمد رأفت السيد
أستاذ النحو والصرف والعروض بجامعة القاهرة بمصر

أ.د. سعيد العوادي
أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بجامعة القاضي عياض بالمغرب

الهيئة الاستشارية

أ.د. محمد بن يعقوب التركستاني
أستاذ أصول اللغة بالجامعة الإسلامية

أ.د. محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

أ.د. تركي بن سهو العتيبي
أستاذ النحو والصرف بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أ.د. عياد بن عيد الثبيتي
أستاذ النحو والصرف بجامعة أم القرى

أ.د. سالم بن سليمان الخماش
أستاذ اللغويات بجامعة الملك عبدالعزيز

أ.د. ناصر بن سعد الرشيد
أستاذ الأدب والنقد بجامعة الملك سعود

أ.د. منصور بن محمد الغامدي
أستاذ الصوتيات الحاسوبية بهيئة تقويم التعليم والتدريب

أ.د. عبد الفتاح محمد حبيب
أستاذ النحو والصرف والعروض بكلية الزقازيق بجامعة الأزهر

أ.د. حسن دربر
أستاذ الترجمة وعلم المصطلح بجامعة القاضي عياض بالمغرب

أ.د. عزالدين محمد المجدوب
أستاذ اللسانيات بالجامعة التونسية

أ.د. محمد بن صالح الشنقيطي
أستاذ النقد الأدبي الحديث بجامعة جدارة بالأردن

أ.د. صالح بن الهادي رمضان
أستاذ الأدب والنقد بجامعة تونس

قواعد النشر في المجلة (*)

- أن يكون البحث جديداً؛ لم يسبق نشره.
- أن يتّسم بالأصالة والجدّة والابتكار والإضافة للمعرفة.
- ألا يكون مستلاً من بحوثٍ سبق نشرها للباحث.
- أن تراعى فيه قواعد البحث العلميّ الأصيل، ومنهجيّته.
- أن يشتمل البحث على:

– عنوان البحث باللغة العربية وباللغة الإنجليزية.
– مستخلص للبحث لا يتجاوز (٢٥٠) كلمة؛ باللغتين العربيّة والإنجليزية.
– كلمات مفتاحيّة لا تتجاوز (٦) كلمات؛ باللغتين العربيّة والإنجليزية.
– مقدّمة.
– صلب البحث.
– خاتمة تتضمّن النّتائج والتّوصيات.
– ثبت المصادر والمراجع باللغة العربية.
– رومنة المصادر العربية بالحروف اللاتينية في قائمة مستقلة.

- في حال (نشر البحث ورقياً) يمنح الباحث نسخة مجانية واحدة من عدد المجلة الذي نُشر بحثُه فيه، و (١٠) مستلات من بحثه.
- في حال اعتماد نشر البحث تؤول حقوق نشره كافة للمجلة، ولها أن تعيد نشره ورقيّاً أو إلكترونيّاً، ويحقّ لها إدراجه في قواعد البيانات المحلّيّة والعالمية – بمقابل أو بدون مقابل – وذلك دون حاجة لإذن الباحث.
- لا يحقّ للباحث إعادة نشر بحثه المقبول للنّشر في المجلّة – في أي وعاء من أوعية النّشر – إلاّ بعد إذن كتابي من رئيس هيئة تحرير المجلة.
- نمط التوثيق المعتمد في المجلة هو نمط (شيكاغو).

(*) يرجع في تفصيل هذه القواعد العامة إلى الموقع الإلكتروني للمجلة: http: //journals. iu. edu. sa/ALS/index. html

محتويات العدد

م	البحث	الصفحة
١)	الأثرُ الْفَلْسَفِيُّ والْمَنْطِقِيُّ فِي شَرْحِ ابْنِ يَعِيشٍ عَلَى الْمُفَصَّلِ دراسة في تداخل الفكر الفلسفي والتحليل النحوي **د. عواض محمد عطيان القارحي**	٩
٢)	الاستراتيجية الحجاجية في الأبواب التأسيسية من كتاب الأصول لابن السراج **د. عائشة قاسم علي شماخي**	٦٣
٣)	وصف الحيوان في الشعر الجاهلي –دراسة بيئية **د. عادل بن علي الغامدي**	١١٣
٤)	أسرار التجاور في آيات الربا والإنفاق في الذكر الحكيم **د. علي بن محمد آل نومة القحطاني**	١٦٥
٥)	الهُويَّة في رواية ما بعد الكارثة –دراسةً نقديَّةً مقارنةً في فرانكشتاين في بغداد لأحمد سعداوي والطَّريق لكورماك مكارثي **د. محمد بن لافي اللويش**	٢٣٧

م	البحث	الصفحة
٦)	الاستلزامُ الحواريّ في خِطاب السِّيرة الذاتية السُّعودية دِراسة تداولية في سِير غازي القصيبي أنموذجًا **د. مريم معيبد عبيد الرشيد**	٢٨٣
٧)	نبرُ الكلمةِ وتدفّق الدلالةِ في الخطابِ دراسةٌ في الديناميّةِ التواصليّةِ "تنظير وإنجاز" **د. نجلاء علي مطري**	٣٣٥
٨)	خطاب الحبّ في كتاب (الزهرة) لأبي بكر الأصفهاني **د. منى بنت سعود آل تويم**	٣٧٧
٩)	تقييم أداء النماذج اللغوية الضخمة (LLMs) في كشف وتصنيف الأخطاء الكتابية لدى متعلمي اللغة العربية لغة ثانية **د. خليوي سامر خليوي العياضي**	٤٢٩
١٠)	مصفوفة مقترحة للمهارات اللازمة لمهارة التحدث لمتعلمي اللغة العربية الناطقين بلغات أخرى وفقًا للإطار الأوروبي المرجعي المشترك **د. علي بن محمد الغامدي**	٤٧٧

خطاب الحبّ في كتاب (الزهرة) لأبي بكر الأصفهاني

The Discourse of Love in Abu Bakr al-Asfahani's Kitāb al-Zahrah

د. منى بنت سعود آل تويم

أستاذ الأدب والنقد المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الأمير سطام بن عبد العزيز بمحافظة الخرج–المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني: m.altwuaym@psau.edu.sa

استلام البحث A Research Receiving		اعتماد البحث A Research Approving
16/09/2025		24/11/2025
نشر البحث A Research Publication		
شوال ١٤٤٧هـ = April 2026		
DOI:10.36046/2356-000-019-018		

ملخص البحث:

تقوم هذه الدراسة المعنونة بـ"خطاب الحبّ في كتاب (الزَّهرَة) لأبي بكر الأصفهاني" على التحليل الأسلوبي البنيوي لخطاب الحبّ في كتاب (الزّهرة) للأصفهاني، بغية استظهار مكوناته، ووظائفه ودلالاته، من خلال ما اشتمل عليه الخطاب من آرائه، وتصنيفاته، وتخيراته للأبيات الشعرية، وتعليقاته عليها.

وقد كشفت الدراسة أنّ خطاب الحبّ عند الأصفهاني نهض على ثلاثة مكوناتٍ رئيسة هي: المكوِّن العنواني، والمكوِّن الشعري، والمكون النثري، ولكلٍ منها وظائفه لتحقيق المقاصد التي سعى إليها المؤلف، من تلك الوظائف؛ الوظيفة الإغرائية، والتعليمية، والتأديبية، والحجاجية. وقد كشفنا تعدّد شخصيات المؤلف من خلال تنوع نبراته الأسلوبية، وتداخل مستوياته التعبيرية؛ إذ برزت شخصية العاشق والفقيه والفيلسوف، وقد غلبت شخصية المؤلف العاشق على الخطاب؛ إذ تصدّى ظاهرة (الحبّ) مؤلِّفٌ حشاه أحشاء عاشق، فلا عجب إن صدر عنه خطاب استجلى ظاهرة الحبّ من أطرافها استجلاء المحلّل الخبير.

الكلمات المفتاحية: خطاب، الحبّ، الشعر، كتاب الزهرة، أبو بكر الأصفهاني، التراث العربي.

Abstract:

This This study, entitled "The Discourse of Love in Kitāb al-Zahrah by Abū Bakr al-Asfahānī," adopts a structural-stylistic approach to the analysis of the discourse of love in Kitāb al-Zahra. Its aim is to uncover the components, functions, and meanings of this discourse through an examination of the author's views, classifications, selection of poetic verses, and his commentary on them.

The findings reveal that al-Asfahānī's discourse of love is founded upon three principal components: the titulary, the poetic, and the prose components. Each of these serves specific functions that contribute to achieving the author's intended purposes—namely, the persuasive, didactic, ethical, and argumentative functions.

The study also exposes the multiplicity of the author's personas, reflected in the diversity of his stylistic tones and the interplay of his expressive levels. Within the text emerge the voices of the lover, the jurist, and the philosopher; yet the dominant voice remains that of the lover. The author, possessing the heart of a true lover, undertook the theme of love with profound insight—thus, it is no wonder that his discourse explores the subject from every angle with the precision and sensitivity of a discerning connoisseur.

Keywords: Discourse, Love, Poetry, Kitāb al-Zahrah, Abū Bakr al-Aṣfahānī, Arabic Heritage.

المقدمة

يسعى الخطابُ[١] -انطلاقًا من وظائفه- إلى إيصال مقاصد معينة، وتحقيق أهدافٍ مرجوّة، ففي الخطاب تبرز مقاصد المؤلف؛ منها ما ينص عليها صراحة، ومنها ما تتوارى في طيات الخطاب، ومن ثَمّ تصبح لغة الخطاب شكلًا دالًا يقود إلى المدلولات الثانوية في المكونات السياقيّة، والعلاقات النصية، والافتراضات المسبقة التي يبني المرسل لغة خطابه عليها؛ ليدركها المرسل إليه، مستدلًا على المقاصد من خلالها[٢].

- مشكلة البحث:

تنبثق إشكالية الدراسة في محاولة الكشف عن بنية خطاب الحبّ في كتاب (الزهرة) للأصفهاني، من خلال دراسة مكوناته، ودلالاته، وخصائصه، وما تحققه تلك الخصائص من غايات وظائفية.

- أهمية البحث:

تبرز أهمية الدراسة في سعيها إلى إعادة قراءة خطاب الحب في كتاب الزهرة للأصفهاني قراءة جديدة، تسعى إلى تحليل البنية الخطابية التي تشكّل عبرها هذا الخطاب، في محاولة للكشف عن آلياته التعبيرية، ووظائفه الدلالية، ومنطلقاته الأسلوبية.

---

(١) نقصد بالخطاب هنا: "الوحدات التي تتجاوز نمط الجملة وتخضع لقواعد تنظيم جارية في مجموعة معينة...هي قواعد تتعلق بتخطيط النص"، انظر: باتريك شارودو، ودومينيك منغنو،"معجم تحليل الخطاب"، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، (ط١، تونس: دار سيناترا والمركز الوطني للترجمة، ٢٠٠٨م):١٨٢

(٢) عبد الهادي بن ظافر الشهري، "إستراتيجيات الخطاب- مقاربة لغوية تداولية"، (ط١، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤م): vi

ويظهر أن ثمة حاجة إلى دراسة خطاب الحبّ في التراث العربي في مؤلفاته العديدة؛ لاستظهار البنية التي تقوم عليه هذه المؤلفات، حيث "يبدو خطاب المحبة بمختلف أشكاله وتوجهاته وأزمنته خطابًا غنيًّا في تراثنا العربي لكنه لم ينل ما يستحقه من البحث ليتحول إلى جزء من المنظومات الفكرية والأخلاقية المعترف بها والقابلة للتعمق والتطور باستمرار"(١).

– أهداف البحث:

تروم الدراسة تحليل بنية خطاب الحب في كتاب الزهرة من خلال:

١–تحليل البنية الخطابية لكتاب الزهرة، للكشف عن طرق انتظامها، وبنيتها الدلالية.

٢–الكشف عن الوظائف الأسلوبية التي ينهض بها الخطاب؛ بوصفها تجليات لأسلوب المؤلف، ووسائل للتأثير في المتلقي.

٣– الكشف عن تجليات حضور شخصية المؤلف، وأثر ذلك في خطابه.

٤–إبراز القيمة المعرفية لخطاب الحب في التراث العربي، من خلال الكشف عن البنية المعرفية لظاهرة الحب التي أسس لها الأصفهاني في كتابه.

– منهج البحث:

تتوسل الدراسة بالمنهج الأسلوبي في مقاربة البنية الخطابية لكتاب الزهرة لأبي بكر الأصفهاني؛ إذ تسعى إلى تحليل المكونات النصية الكبرى، والكشف عن العلاقات التي تنظم الأساليب ووظائفها، وإبراز التنوعات الأسلوبية للمؤلف

(١) معجب الزهراني، "خطاب المحبة ضد خطاب التوحش: قضايا الحبّ ومكانة المرأة في طوق الحمامة لابن حزم". *مجلة موارد جامعة سوسة–كلية الآداب والعلوم الإنسانية* ١٠، (٢٠٠٥م): ٥١

ومنطلقاتها في خطابه.

- الدراسات السابقة:

يظهر أن كثيرًا من الباحثين الذين اهتموا بظاهرة الحبّ في المؤلفات التراثية، أَوْلوا كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم عناية كبيرة، بينما لم يحظ كتاب (الزهرة) بدراسات توازي أهميته، إلا أن أهم الدراسات التي خصّته بدراسة مفصلة-بحسب ما تبين لي- ما يلي:

١-(الحبّ العذري-نشأته وتطوره):

وهي دراسة للباحث أحمد عبد الستار الجواري، وفيه درس مفهوم الحبّ ونشأته، وأفرد فصلاً بعنوان: الحبّ عند الفقهاء، درس فيه كتاب الزهرة للأصفهاني؛ مستعرضًا آراءه في الحبّ ومراتبه وأحواله، ولم يدرس مكونات خطابه.

٢- (الحبّ في التراث العربي):

وهي دراسة للباحث محمد حسن عبد الله، خصّ المؤلف في الفصل الثاني أهم من ألف في الحبّ في تراثنا العربي، وقسمهم إلى نوعين: نوع عدَّ مؤلفوها المحبة والعشق ظاهرة إنسانية، وهي من أحوال النفس البشرية. والنوع الثاني: ما ألفه أهل التصوف الذي يعدون المحبة الإنسانية مرتبة أولى في سلوك السالك إلى المحبة الإلهية[١]. وقد عَدّ المؤلف أبا بكر الأصفهاني من أوائل المؤلفين في النوع الأول، وهو الذي أسس اتجاهًا جديدًا قي دراسة الحبّ؛ متمثلًا في الملاحظة، والرصد، والتصنيف، والتحليل. ومع هذا فإن كلتا الدراستين وغيرهما من الدراسات [٢]، لم

(١) محمد حسن عبد الله، "الحبّ في التراث العربي"، (ط١، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ديسمبر ١٩٨٠م): ٤٠

(٢) ثمة دراسات أخرى للكتاب لكنها اختصت بالاستدراكات على المحقق، مثل دراسة: ١- =

تحلل خطاب الحبّ في كتاب (الزهرة) تحليلاً أسلوبيا بنيويا، ومن هنا نشأت فكرة هذه الدراسة، منطلقة من أهمية دراسة الخطابات الثقافية في تراثنا العربي بأدوات نقدية جديدة، للكشف عن جذور هذه الخطابات في تاريخ ثقافتنا، وأسس بنائها، والغاية من تأليفها.

=

إبراهيم السامرائي، "مع كتاب (الزهرة) لأبي بكر محمد بن أبي سلمان داود الأصفهاني". *مجلة معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم* ٢٨ (١٩٨٤م):٦٢٣-٦٥١

٢-محمد البقاعي، "نظرات من كتاب الزهرة". *اتحاد الكتاب العرب* ١٦، (١٩٩٦): ١١٥-١٢٥

التمهيد

يُعدّ الأصفهاني رائد التأليف في الحبّ في الثقافة العربية، فهو وإن كان سُبق إلى التأليف في هذا الموضوع، إلا أنه امتاز بمحاولته استجلاء ماهيّة الحبّ مستندًا على ما اطلع عليه في ثقافته العربية والثقافات الأخرى، من كتب دينية، وأدبية، وفلسفية، فكشف عن أسباب تكونه وبواعثه النفسية والسلوكية، فجمع البواعث إلى المظاهر، والعلامات إلى النتائج، جاعلا عيّنة بحثه ما اختاره من (الأبيات الشعرية) الغزلية، والتي وصفت الحبّ وأحواله، فصنفها تحت أبواب مرتبة، وعلق عليها بآرائه ومذهبه، وبهذا عُدّ متفرّدًا بريادة البحث النظري في الحبّ(١).

ألّف الأصفهاني(ت٢٩٦هـ) كتابه (الزهرة) في بواكير التأليف عن ظاهرة الحبّ في الثقافة العربية الإسلامية، بعد مؤلفات الجاحظ(ت٢٥٥هـ) الذي فتح باب التأليف في الحبّ بإشاراته في رسائله عن النساء والقيان، ثم ما كتبه أحمد بن الطيب السرخسي (ت٢٨٦هـ) في مؤلفه (اللهو والملاهي) وهو في الغناء والمغنين والمنادمة والملح، وكتاب القيان(٢). ثم جاء الأصفهاني من بعده بمؤلف قائم على موضوع الحبّ؛ مازج فيه بين الفقه والأدب بأسلوب فني مميز(٣) محاولاً الكشف عن أحواله، ومراتبه، وأسبابه، وعوارضه، وتقلباته، وآثاره، وإرشاد المتأدبين إلى آدابه.

وتأليف الفقهاء في الحبّ لافت في الثقافة العربية، وقد يتعجب المرء من اعتناء

(١) محمد حسن عبد الله، "الحبّ في التراث العربي"، ٧١-٧٢

(٢) المرجع السابق، ٤٢

(٣) فائزة بسندي، ومهسا خليليان، "استكشاف جوانب جديدة من ملامح الرومانسية العربية في شعر الغزل لأبي بكر بن داود الأصفهاني". *مجلة أوراق ثقافية للآداب والعلوم الإنسانية* ٣٦ (٢٠٢٥م): ١٧

مجموعة من الفقهاء الظاهرية والحنابلة بالحبّ، ودراسته دراسة موسعة[١]، إلا أننا حين نتأمل ما يقوم عليه مفهوم الحبّ؛ سنجد أن اهتمام الفقهاء به عائد إلى أن الفقه يهتم بالعلاقات الاجتماعية وما يترتب عليها، فلا غرو إذن أن ينشغل الفقهاء بهذا النوع من التأليف؛ وذلك بقصد الكشف عن النوازع الإنسانية، وطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، وما يقبل في تلك العلاقة وما لا يقبل[٢].

يُوجِّه الأصفهاني كتابه لأهل الظرف والأدب، باعثه في التأليف تأديب المحبين والعشاق بآداب الحبّ؛ للارتقاء بهذه العاطفة إلى مستوى روحي عالٍ لا تكدرها شوائب الملذات الدنيوية؛ وذلك برياضة النفس، وتقويم سلوكها، وتوجيه تفكيرها، فالحبّ عنده تعبير عن حالة عقلية، تأملية، ولذا ستجده يخاطب الرجل، على أنه هو المحب دائما، والطالب دائما، والمرأة هي المحبوبة المطلوبة، وهذا من سمات ظاهرة الحبّ في الثقافة العربية[٣].

وقد تبين أن من مقاصد الخطاب ما ذكرها الأصفهاني صراحة في مقدمته، ومنها ما تبينت لنا بعد تحليلٍ لإستراتيجياته في الكتابة؛ التي تعني الاختيارات الشكلية والأسلوبية التي يقصدها الكاتب بوعي في أثناء عملية إنجاز النص، ويكون غالبًا لكسب ثقة القارئ النموذجي، والتأثير الفعال في القارئ المعتاد[٤].

وقد انطلق الأصفهاني في خطابه من معيار سمّاه: (الحبّ التّام)، معبّرًا به عن مستوى نفسي وتأملي خاص، ونظرة مثالية تسعى إلى إنشاء خطاب عن مثالية

(١) عبد السلام، سعد، "الحبّ بين الدين والفلسفة عند ابن حزم الظاهري". *مجلة الحكمة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع* ٩ (٢٠١١م): ١١٠

(٢) عبد الله، محمد حسن، "الحبّ في التراث العربي"، ٤٧

(٣) المرجع السابق، ٧٣

(٤) الزهراني، معجب، "خطاب المحبة ضد خطاب التوحش"، ٥٠

الحبّ، بخلاف المؤلفات الأخرى التي جاءت من بعده؛ مثل طوق الحمامة وغيره التي ترى أن الحبّ سلوك اجتماعي يتطلب الذوق والكياسة[١].

– قراءة في عنوان الكتاب:

سنقف ابتداء عند دلالة العنوان؛ لما لها من علاقة وثيقة بالخطاب وبنيته المعرفية، وكما نعرف فقد اشتملت عنوانات أكثر المؤلفات التراثية على المحسنات البديعية من سجع وجناس وغيرها، فإذا قرأتَ عنوانا منها دلّك على أنه مؤلف تراثي –أو حديث مرتبط بالتراث– من سبك العنوان الذي غالبًا ما يأتي في جملة أو جملتين. إلا أننا هنا نجد هذا المصنف قد سُمي بكلمة واحدة: (الزّهرة) وقد اُختلف في معناها؛ هل المقصود بها الزَّهرة في البستان، أم كوكب (الزُّهرة)؟

رجّح المحقق أن تسميته بالزَّهرة بفتح الزاي؛ لتعليلات عدة ذكرها في مقدمته؛ جاء فيها أن كتاب أحمد بن محمد الجياني الأندلسي المعروف بـ(الحدائق) الذي عارض فيه كتاب الزهرة، وفي قوله (الحدائق والزهرة) دلالة على الربط بين الحديقة والزهرة، وكذلك أن استعمال لفظة (الزهرة) في الكتب معروف عند المتقدمين من مثل: الزهر المقطوف من فتح الرؤوف، زهرة البساتين وغيرها، وأنه لم يجد عند القدامى من ضبطها بالضم، وكذلك ما ذُكر في خبر ياقوت الحموي من ارتباط الزهرة بمتنزهات القلوب[٢].

وحين نتأمل العنوان وارتباطه بالموضوع وسبب تأليف الكتاب؛ يتبين لنا أن مفردة الزهرة قد تبدو المعادل الموضوعي للحب؛ فإذا رأينا ما يشتمل عليه الكتاب من

(١) المرجع السابق، ١٤٣

(٢) أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني، "كتاب الزهرة". تحقيق إبراهيم السامرائي، (ط٢، الزرقاء: مكتبة المنار، ١٩٨٥م): ٢٧-٢٨

التبصرة بالآداب التي يجب على المحبّ أن يتحلى بها، وعلمنا أن الزهرة تحتاج إلى رعاية لتنمو وتعيش وكذلك الحبّ؛ قَرُب ظننا أن المقصود بالزهرة كناية عن الحبّ، كما أن دلالة الإزهار والتفتح تماثل تفتح الروح بالحبّ وتلطف الحواس به، ومما يرفد هذا المذهب أن التعريف بأل يحيل على مفردة مقصودة بعينها، وكذلك لإفراد زهرة في عنوان الكتاب مع غلبة الجمع على العنوانات المذكورة؛ مثل زهر الآداب وغيرها؛ للدلالة على جمع الأخبار والأشعار؛ فلو كان ذلك لكانت دلالة الجمع أقرب، فلمّا أُفردت ولم تضف إلى كلمة تُفصح عن المقصود، غلّبنا ما ذهبنا إليه من ارتباط الزهرة بمعنى الحبّ وأثره ارتباطًا معنويا ودلاليا ولفظيًّا[١].

(١) للاستزادة من آراء النقاد فيما يخص دلالة العنوان، انظر: أحمد عبد الستار الجوادي، "الحبّ العذري: نشأته وتطوره". (ط١، دار الكتاب العربي، ١٩٤٨م) ص١٠٧-١٠٩

المبحث الأول: مكونات خطاب الحبّ في كتاب الزهرة

اشتمل خطاب الحبّ في كتاب الزهرة على ثلاثة مكوناتٍ رئيسة، تأتي تباعًا بحسب موقعها في الكتاب: المكوّن العنواني، والمكون الشعري، والمكون النثري.

يحاول المؤلف في الجزء الأول من الكتاب تأسيس خطاب في الحبّ، انطلاقًا من مسارب متعددة، تشتمل على المكونات الآنفة الذكر؛ أولاها: وضع خمسين عنوانا في الحبّ على جنس المثل. ثانيها: يورد بعض الأشعار المتخيّرة بقصد تأكيد المعنى الذي يذهب إليه. ثالثها: يبين رأيه في أشعار الغزل والحبّ؛ من حيث صواب معناها مِن خطئه، وصدق المحب مِن عدمه.

أولا– المكون العنواني:

يُقيم الأصفهاني كتابه في خمسين بابًا مقسمة بحسب موضوعاتها، وقد عنونها على صيغة أمثالٍ وحِكَم، تُمثّل النواة الأساسية لخطاب الحبّ، كأنما هي حِكَم سائرة في مفاوز الحبّ ومهامه، مُفصِّلاً بها نظريته في الحبّ، ومورِدًا تحت كل عنوان/مثلٍ، مقطعاتٍ شعرية تُشاكل المعنى المراد، يقول في هذا: "وقد جعلت الأبواب المنسوبة إلى الغزل من هذا الكتاب أمثالا، ورتبتها على ترتيب الوقوع حالا فحالا. فقدمت وصف كون الهوى وأسبابه، وبسطت ذكر الأحوال العارضة فيه، بعد استحكامه من الهجر والفراق، وما توجبه غلبات التشوق والإشفاق. ثم ختمتها بذكر الوفاء بعد الوفاة، وبعد أن أتيت على ذكر الوفاء في الحياة. وأجريت ما بين أول الأبواب أوسطها، وما بين أوسطها وآخرها على المراتب بابا فبابا، لم أقدِّم مؤخرا، ولم أؤخر مقدما"[1].

يقوم خطاب الحبّ عند الأصفهاني على البدء بسرد النتائج (العنوانات) في مطلع كل فصل، ثم دعمها بالشواهد الشعرية؛ إذ يبدو أنه استقرأ دلالات الحبّ في الذاكرة

(١) الأصفهاني، "الزهرة"، ٤١-٤٢

الجمعية المتمثلة في تلكم الشواهد، والمقولات الدالة التي تصف أبعاد هذه العاطفة، ثم استخلص منها حِكَمًا صاغها أمثالاً، فصيّرها عناوين لخطابه استفتح بها فصوله؛ فجاءت خلاصة كل فصل متمثّلة في عنوانه، وللأمثال وظيفتها الإقناعية، ولهذا فإن صياغة النتائج بقالب مثلي يرسخ المعنى المراد من كل فصل في ذهن القارئ، وهذه من الإستراتيجيات المتقدمة في التأليف التي وظفها الأصفهاني في خطابه.

وإذا ما أنعمنا النظر في طريقة سبك العنوانات، نلحظ أن الجمل الشرطية استغرقت ثلثيها؛ إذ بلغت تسعة وعشرين عنوانًا بُدئ بـ(من)، واثنان بـ(إذا)، فما دلالة ذلك؟ سنقف ابتداء على معنى الشرط، وهو عند اللغويين: "تعليق شيء بشيء، بحيث إذا وجد الأول وجد الثاني...وقيل: الشرط: ما يتوقف ثبوت الحكم عليه"(١)، وهذا الأسلوب في الكتابة من حيث ارتباط الفعل بنتيجته ارتباطا مباشرًا يؤثر في استجابة القارئ، وله وظيفته التي تؤثر في تلقي القارئ وعلوقه في ذهنه، وأثره في نفسه، يقول عبد العظيم المطعني: "الأسلوب الشرطي يمتاز بربطه أجزاء الكلام ربطا ملاحظا فيه ترتُّب المسبب على السبب، فإذا ذكرتَ أداة الشرط وأردفتَ بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون، فإذا ذكر الجواب بعد هذه الاستثارة، وهذا التشويق تمكن أيما تمكن"(٢).

من مميزات أسلوب الشرط كذلك، أن الأفعال بعدها قد يُعدل بها عن الاستقبال إلى المضي لفظا لا معنى؛ لدلالة الاحتياط للمعنى، يقول ابن جني:

(١) الجرجاني، علي، "كتاب التعريفات". تحقيق جماعه من العلماء، (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية،١٩٨٣م): ١٢٥

(٢) المطعني، عبد العظيم، "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية". (ط١، القاهرة: مكتبة وهبة،١٩٩٢م): ٣: ٢٠٨

"فيجيء بلفظ الماضي والمعنى معنى المضارع؛ وذلك أنه أراد الاحتياط للمعنى، فجاء بمعنى المضارع المشكوك في وقوعه بلفظ الماضي المقطوع بكونه، حتى كأن هذا قد وقع واستقر، لا أنه متوقع مترقب"(١)، فهذه الجمل الشرطية تقريرية، تقوم على فعل مضارع عدل عنه بالماضي المثبت وقوعه، من حيث هو فعل متعلق بمآل حتمي؛ لتُحدث لدى المتلقي إدراكًا بنتيجة تلكم الأفعال ومآلاتها، وهذه التقنية الحجاجية تندرج ضمن (الحجة البرغماتية) بما يسميه الاحتجاج بالرابط السببي، التي تربط بين السبب أو الحدث وما ينتج عنه(٢)، بغية التحضيض عليه أو التنفير منه، يقول بيرلمان: "إننا نطلق الحجة البرغماتية على تلك التي تسمح بتقويم فعل أو حدث في علاقته بنتائجه المفيدة أو الضارة. هذه الحجة تلعب دورًا مهما في الحجاج"(٣)، وهنا نجدها في المكون العنواني تتراوح في ربطها السببي ما بين اتجاهين؛ أولهما يبدأ من السبب إلى النتيجة، مثل قوله: "من كثرت لحظاته، دامت حسراته"(٤)، و "من عاتب على كل ذنبٍ أخاه، فخليق أن يملّه ويقلاه"(٥)، وغيرها كثير، والآخر يبدأ من النتيجة إلى السبب، مثل قوله: "سوء الظن، من شدّة الضن"، وهذه التقنية الحجاجية بحسب بيرلمان من أهم وسائل الحجاج(٦).

(١) ابن جني، "الخصائص". تحقيق محمد علي النجار، (ط٤، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت): ٣: ١٠٧

(٢) بيرلمان، شاييم وآخرون، "المصنف في الحجاج". ترجمه: محمد الولي (ط١، بنغازي: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٢٣م): ٤٠٩

(٣) المرجع السابق، ٤١٣

(٤) الأصفهاني، "الزهرة"، ٤٥

(٥) المصدر السابق، ١٩٥

(٦) صولة، عبد الله، "في نظرية الحجاج-دراسات وتطبيقات". (ط١، تونس: مسكلياني للنشر =

وخطاب الحبّ –في عمومه– قائم على الآداب التي يجب على المحبوب أن يتحلى بها، وطرق تهذيب أفعاله، ومشاعره، في محاولة لفهم طبيعة الحبّ، وما يتركه من أثر على المحب والمحبوب، فكان من المنطقي أن تكثر الجمل الشرطية حتى تبلغ ثلثيه في خطاب يُعنى بالحبّ؛ لما فيها من توجيه وتأديب وتبصرة كما ذكرنا، وكذلك لما في طبيعة هذا الشعور من أنه قائم على الفعل ورد الفعل، من المحب والمحبوب، وما يتبعهما من مشاعر متعلقة بهما.

حين نحاول تفكيك خطاب الحبّ عند الأصفهاني متمثلا في العنوانات وما تحيل عليه معانيها؛ فإننا نجدها مقسمة على ما يلي:

من ١–٥ قائمة على وصف تكوّن الهوى وأسبابه، ومن ٦–٢٩ في ذكر أحوال الحبّ وآدابه، ومن ٣٠–٤٨ في ذكر ما توجبه غلبات التشوق والإشفاق، ومن ٤٩–٥٠ في الوفاء وأحواله.

فالمثل بما يحويه من تكثيف المعنى بلغةٍ رشيقة مسجّعة ذات جرس، أدعى إلى تعلقه في الأذهان ومن ثَمّ تذكّره، وقد ذكر في مقدمته ما يُلمح إلى أنه نحا إلى هذا النحو قاصدًا تلك السيرورة، يقول: "ومثل هذا الكتاب إنما يطلبه أهل الآداب ليخفّ على الألفاظ، ويتسهّل للحفاظ"(١).

ومما يلفت النظر في طريقة سبك هذه الأبواب/الأمثال وترتيبها، أنها جاءت متدرجة مع التطور المألوف لعاطفة الحبّ في مسارها العام المتوقع؛ فلما كان (النظر) هو البداية، يكون الباب الأول بعنوان: (من كثرت لحظاته زادت حسراته)، ومن ثم تبدأ البلبلة واضطراب الخاطر، فيكون الباب الثاني: (العقل عند الهوى أسير والشوق

=

والتوزيع، ٢٠١١م): ٥٠

(١) الأصفهاني، "الزهرة"، ٤١

عليهما أمير)، وتمر العلاقة بأطوار عدة تصفها الأبواب يمر بها الزمن بسيرورته وصيرورته، فيأتي الشيب مقرًّا بالجفاء فاليأس وهو مقدمة للموت؛ ليختم الكتاب بالفصل الأخير (قليل الوفاء بعد الوفاة أجل من كثيره وقت الحياة) وهو خاتمة الأبواب الخمسين التي تدرجت مع صيرورة الحبّ ومآلاته[1].

وإذا نظرنا إلى العنوانات من منطلق الإيجاب والسلب في ظاهرة الحبّ؛ يمكننا تقسيم المكون العنواني إلى دائرتين؛ الأولى: المعاني التي تدخل في دائرة الإيجاب: من ١-١٩؛ وهي تتضمن أسلوب الوصف والإرشاد مثل المفردات الإيجابية الدالة: (الظفر، التذلّل، الحبيب، الأديب، ظريف، عفيف، الظرف، حافظ، الخلّة، قرب المزار) والأفعال الدالة مثل: (كثرت، دامت، تداوى، طال سروره، وفى، هان، قنع، أحبّه أحبابه، لم يعاتب، اغتفر، اعتذر). أما الدائرة الثانية: وهي العنوانات من ٢٠-٥٠؛ فتتضمن المفردات السلبية مثل: (الغدر، الهجر، الفراق، النوى، البلا، الوداع، تعذيب، المستوحش، تلهُّب، المنفرد، المفارق، الأوهام، العجز، نحول، كمد، بعيد، شديد، صدّ) والأفعال الدالة مثل: (غاب، بكى، راعه، غلبه، صبر، تجلّد، تعرّض، مُنع، تشوّق، أُمتحن، فاته، حُجب، تعلّل، قصر، طال، غُلب، شابت، جفا، يئس)، وهذا يوضح هيمنة الدائرة السلبية، وفي هذا دلالة على ما يكتنف ظاهرة الحبّ وما يغلب عليها من ورود الأهوال والمشاق، أكثر من حصول المحابّ، وهذا ما أراد الأصفهاني إظهاره في خطابه بدءًا من العنوانات.

ثانيًا- المكون الشعري:

إذا كان الشاعر أول من انتقل بالحبّ من مستوى الظاهرة السلوكية إلى مستوى الظاهرة الفنية؛ فإنه يستحق أن يُلقّب بـ (أول مؤلف) عن الحبّ، إذا أريد بالتأليف

(١) عبد الله، محمد حسن، "الحبّ في التراث العربي"،٧٢-٧٣

مجرد التعبير التلقائي[١]، وعلى الشعر بُنيت خطابات الحبّ التي بحثت في الموضوع وصفًا وتحليلاً؛ لأن الشعر هو التجلي الفني لظاهرة الحبّ، فكلّ شاعر عبّر عن تجربة واقعية أو خيالية هو عيّنة صالحة للدراسة.

في هذا الخطاب يُمثِّل المكون الشعري المادة الخام الذي بنى عليها الأصفهاني خطابه، ومنها انطلق في ذكر آرائه ومعتقداته ومذاهبه عن الحبّ مُستدلّا عليها بها، وذلك بعد أن استوفت قريحته كثيرا من القصائد والمقطوعات في الحبّ، استخلص منها الحكم وعنون بها فصوله، ثم تخيّر تحت كل عنوان ما يناسبه من المقطوعات والأبيات. وهو مع تخيّره للأشعار كان يورد من أشعاره ما ينسبه إلى أهل زمانه، ذكر ذلك المسعودي في مروجه[٢].

والاستناد إلى الشواهد الشعرية تقنية حجاجية يوظفها المؤلف في خطابه ليؤسس قاعدة معينة، يسميها بيرلمان تقنية الشاهد (L'illustration)؛ إذ يؤتى بالشاهد لتوضيح القاعدة وتكثيف حضور الأفكار في الذهن؛ ومن ثمَّ يقوي درجة تصديقها والاقتناع بها لدى المتلقي[٣].

يورد الأصفهاني في مقدمته ما يبين منهجه في التأليف: "وأنا–إن شاء الله– أذكرُ بعقب كل باب منها ما يُشاكله من الأشعار، وأقتصر على القليل من الأخبار؛ لأنها قد كثرت في أيدي الناس، فقلّ من يستفيدها. وأُفاضل بين الأشعار على ما توجبه الحال التي ادعاها صاحبها"[٤].

(١) عبد الله، محمد حسن، "الحبّ في التراث العربي"، ٣٩

(٢) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، "مروج الذهب ومعادن الجوهر". تحقيق كمال حسن مرعي، (ط١، بيروت: المكتبة العصرية،٢٠٠٥م): ٢٣٦/٤

(٣) بيرلمان، شاييم وآخرون، "المصنف في الحجاج"، ٥٢١

(٤) الأصفهاني، "الزهرة"، ٤٤

إن أول مقطوعة يستشهد بها في كتابه ليثبت انتفاء قاعدةٍ في الحبّ، تكتنز – في الوقت ذاته– بمفردات تُنبيك عن عِظَم موضوعه وأهميته؛ تأمل هذه المفردات في المقطوعة الشعرية التي ابتدأ بها: (الخطب ، أمر، محدثات الأمور...)، يقول: "أنشدني بعض الظرفاء:

ليس خطب الهوى بخطب يسير ولا يُنبيك عنه مثـل خبـير
ليس أمـر الهوى يدبـره الـ ـرأي ولا بالقياس والتفكيرِ
إنما الأمر في الهـوى خطـراتٌ محدثات الأمور بعـد الأمورِ
إن تكن صـادق المـودة فاقنع وارض ممن تحبـه باليـسيرِ

ويبدو أنّ تَخيّر الأصفهاني لهذه المقطوعة تخير العارف البصير فقوله: "لا يُنبّيك عنه مثل خبير" لعل الخبير يعني بها نفسه؛ فهو الذي خبر الحبّ حتى أهلكه وهو في بحبوحة شبابه(١).

يظهر للمتأمل في خطاب الحبّ عند الأصفهاني؛ أنه يأتي بالمكوّن الشعري ليؤدي وظيفتين:

أولاها: أن المقطوعات الشعرية تنوب عما يريد ذكره للقارئ، من مثل ابتدائه في مطلع الفصل الأول بمقطوعة تشرح طبيعة الحبّ وأسباب تكونه ومآلاته، فيذكر قول أعرابية:

أرى الحبّ لا يفنى ولم يُنه الألى أُحينوا وقد كانوا على سالف الدهرِ
وكـلهم قـد خـالـه في فـؤاده بأجمعه يحكـون ذلك في الشعـرِ
وما الحبّ إلا سمع أذن ونظرة ووجبة قلبٍ عن حديث وعن ذكرِ

(١) ذكر ذلك في مقدمة كتابه، انظر: الأصفهاني، "الزهرة"، ٣٨

ولو كان شيء غيره فني الهوى وأبلاه من يهوى، ولو كان من صخرِ

ثانيها: أنه يأتي بالمقطوعات الشعرية ليستدل بها، وليعلق عليها إن أحسن الشاعر أو أساء، يقول في ذلك: "وقد ذكرنا من أقاويل الشعراء في الهوى يقع ابتداؤه من النظر والسماع ما في بعضه بلاغ. ثم نحن ذاكرون ما في ذلك الأمر الذي أوقعه السماع والنظر، ولِمَ وقع، وكيف وقع؛ إذ قد صح كونه عند العامة وخفي سببه على الخاصة"(١). وهذا كما ذكرنا من التقنيات الحجاجية، فالشعر مكوّن أساسي ضمن خطابات الحبّ في الثقافة العربية له وظيفة معاضدة للسرد كما نرى في طوق الحمامة(٢).

ثالثًا– المكون النثري:

تبرز شخصية الأصفهاني بوصفها ضرورة حتمية في بناء خطاب الحبّ؛ لذلك ستجده غالبًا ما يحضر في تخيره للأخبار، وتعليقه على الأشعار، وتجارب الشعراء، والتجارب التي ورَد معتركاتها في حياته الخاصة.

فللمكوّن النثري سلطته الأبوية في خطاب الحبّ عند الأصفهاني؛ على نحو ما يتمثّل في آرائه وتعليقاته على الأشعار التي يوجّه فيها المتأدِّبين والشعراء والعشاق إلى آداب الحبّ، موافقًا أحيانًا على مذهب بعضهم ومثنيًا عليهم، ومخالفًا لهم في أحايين أخرى، ومنكرًا عليهم مذهبهم، بل قد يسلبهم أحيانًا صدق محبتهم، ويقدح في وفائهم.

يبيّن في ختام المقدمة أن مراتب الحبّ لا قاعدة يؤصل عليها، ولا طريق فيه يُتّبع، فقد يتخلق الحبّ في أدنى أطواره أو أعلاها، فلكل فرد تجربته المتفردة، وفي ذلك

(١) المصدر السابق، ٥٣

(٢) المنصف شعرانة، "خطاب الحبّ في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي". *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القيروان ١٤*، (٢٠٢٢م): ٢١٠

يقول: "ليس لهذا الشأن أصل مُقدّم، وطريق مُفوّض، فمن خالف ترتيبه كان معنّفًا"(١)، وهو لا يُلزم الشعراء باتباع طريق معين، إنما يلزمهم بالحال التي ادّعوها لأنفسهم، وأن يفوا بما شرطوه على أنفسهم، ومع ذلك تراه يورد رأيه فيما يذهبون إليه في أشعارهم، من معانٍ ومذاهب ورؤى، ويفاضل بين الحسن والأحسن، يقول في مذهبه هذا: "أُفاضِل بين الأشعار على ما توجبه الحال التي ادّعاها صاحبها، ولا أحمل الناس على اختيار أحدهم فأكون ظالما لهم، لأن الرجل لا يلزمه أن يقول ما أصّله غيره، وإنما يلزمه أن يفي بما شرطه على نفسه...غير أني، وإن كنتُ مُقرًّا لهم بالإصابة على ما قدّموه لأنفسهم، فلن أمنع نفسي حظّها من الإخبار بأحسن أقاويلهم"(٢).

ويبرز في المكون النثري سعة ثقافته الدينية والفلسفية؛ يظهر ذلك في استناده على أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأقوال الحكماء، والفلاسفة، والأعراب، وأهل الأدب، والمتصوفين، ويَقِلّ ذكره للأخبار والقصص.

وهو في إيراده لتعليقاته على الأشعار كما يقول عنه أحمد عبد الستار: "كان يقول الشعر بروح الإنسان الذي تملكه العاطفة، ويكتب النثر بروح المفكر المثالي الذي يفلسف الفكرة ويهذبها ويخلصها مما يشوب الخلق الإنساني وما يطرأ عليه"(٣).

يتكثّف المكون النثري في أوائل أبواب كتابه العشرة الأولى تقريبا، حيث ضمّنها ركائز نظريته عن الحبّ؛ معناه، وأسبابه، وملامحه، وقد يورد أبوابًا كاملة لا يعلق عليها برأي أو معلومة، وإنما يكتفي بإيراد شواهد شعرية تتناسب وعنوان الباب.

(١) الأصفهاني، "الزهرة"، ٥٣

(٢) الأصفهاني، "الزهرة"، ٥٣

(٣) الجوادي، عبد الستار، "الحبّ العذري"، ١١٨

وحين نتتبع هنا المكون النثري في الجزء الأول من هذا الكتاب–وهو مدار الدراسة– سنجد أنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام: المقدمة، ثم تمهيد في وصف الحبّ، ثم ما يورده من آراء وتعليقات على الأشعار المختارة.

١– المقدمة:

حين نعمد إلى تفكيك بنية المقدمة، ستتجلى لنا بعض الدلالات التي تفتح لنا آفاقًا أوسع لفهم هذا الخطاب ومقصوده؛ وقد اشتملت المقدمة على مقاصد عدّة، نوردها فيما يلي:

أ– الاستفتاح بالدعاء:

يبتدئ الأصفهاني مقدمته بالدعاء لصديق لم يشر إلى اسمه، وحين نحاول استجلاء ملامح شخصية المخاطَب فإنها ستتجلّى من خلال صيغ الدعاء؛ إذ نجد ملمحين واضحين:

الأول: حبه له وتشوقه إليه وتفديته بنفسه، ومنها نستظهر شعور الأصفهاني تجاهه من خلال جملة من الأدعية أَوردَها تباعًا: "أطال الله في العز الدائم بقاك، وصان عن غِيَر الأيام نعماك، وجعلني غرضًا للنوائب فداك، وقدّمني على ورود الحمام قبلك وأبقاك...أدام الله الرغبة إليك...لينطق من المودة لك، والثقة بك، والرعاية والأنس بقربك، على حال تفنى الأوصاف دون فنائها، وتنقضي الآجال قبل انقضائها...قدمني الله قبلك وقاء لك...كيف يكون متفضلا عليك من ليست فيه فضيلة إلا وهي مردودة إليك"(١). ونلحظ من معاني هذه الأدعية عظيم حبه للمهدى إليه، وتعلقه به.

الثاني: وصفه المهدى إليه بعدم الوفاء له، وضعف مودته له، والانقطاع عن

(١) الأصفهاني، "الزهرة"، ٣٧–٣٨

وصله، وفي ذلك يقول: "فإني وإن بخل عليّ الزمان بوفائك، ونافستني الأيام فيما أعتصم به من حبل إخائك...ولن يعدل بي ما شكوت وجوده من تواتر جفائك، وألمتُ لفقده من صحة وفائك...لئن حُرمتُ العلم بفضلك عليّ مع ما حرمته من رغبتك في وميلك إلي...ما الذي تُنكر-أدام الله عزك، وبسط بالخيرات يدك- من تغير الزمان وأنت من مغيريه، ومن جفاء الإخوان وأنت المقدم فيه.، بأن تحتج له وتعتذر لفاعليه، أحرى منك بأن تعيبه وتذم مستعمليه"(١). وفي هذه الأدعية بيان لحال المؤلِّف من فقده لوفاء صاحبه، وصلته به، وفي هذا دلالة على أن هذا الشعور هو ما أعظَم أسباب تأليفه لهذا الكتاب، كما سيرد ذكره.

ب- أسباب تأليف الكتاب:

تُعدّ المقدمة عقدًا بين المؤلف والقارئ، وفيها نتبين أسباب تأليف الكتاب، وما سيردنا في متنه. أما أسباب تأليفه فإنه لم يكن سببًا واحدًا كما نصّ المحقق على ذلك وهو إهداؤه للمخاطب؛ وإنما تبدّت لنا أسباب عدّة، نوردها تباعًا كما تبيّناها من المقدمة.

إن السبب الأكبر الدافع إلى تأليف كتاب في الحبّ، ما ذكره المؤلف في مقدمته(٢)، وما ذُكر عنه من أخبار؛ من أنه واقع به، متلظٍّ بعذاباته، متسائلاً عن كنهه، وعن مبدئه ومنتهاه ومآله، والحبّ بطبيعته يعيا على التجلية والسبر والوصف؛ وهذا ما جعله يعمد إلى تأليف مؤلف يدور حوله، ويحاول تفسير آثاره، ووصفها، وما يجب على المحب والمحبوب أن يتصفا به، وهو إذ يصف أعراضه وتباريحه يحاول أن يؤسس خطابًا في أخلاقياته؛ بجمع ما كتب عنه وتفنيده ونقده.

(١) المصدر السابق، ٣٨-٣٩

(٢) الأصفهاني، "الزهرة"، ٣٨

ويضع في آخر المقدمة نصًا هو أشبه بعقد بين المؤلف وقارئه؛ ففيه يُفصح عن أسباب تأليفه، وعما سيورده في متنه، يقول فيه: "وقد عزمتُ لِما رأيتُ بكَ من غلبات الاشتياق، ومن ميلك إلى تعرف أحوال المشاقّ، أن أُوجّه إليك نديمًا يشاهد بك أحوال المتقدمين، ويُحضرك أخبار الغائبين، ينشط بنشاطك، ويمل بملالك، إن أدنيته دنا، وإن أقصيته نأى، لا يزهى عليك عند حاجتك إليه...انتزعته لك من خواطري، واخترته من غريب ما اتصل بمسامعي...وأقتصر في ذلك على قليل من كثير، وأقنع من كل فن باليسير، إذ كان ما نقصده أكثر من أن يتضمنه كتاب، أو يعبر عن حقيقته كتاب"(١)، وهو في خلاصته ينشد تأديب المتأدبين والشعراء والعشاق بآداب الحبّ الكامل.

هذا ما يخص المقدمة التي بين فيها أهم الأسباب التي دعته إلى تصنيف كتابه، ومن المكونات السردية بعد المقدمة تمهيده لخطاب الحبّ.

٢– تمهيد في وصف الحبّ:

يفتتح الأصفهاني خطابه بمقولة تصف ظاهرة الحبّ ومرجع نشوئها، وذلك في قوله: "قال بعض الحكماء: رُبَّ حرب جُنيت من لفظة، ورُبّ عشق غُرس من لحظة"(٢)، وفي تخيّر مفردة (غرس) بكل ما تحيل عليه، ما يكشف عن رقّة العرب في وصفهم لهذه العاطفة وتكوّنها في القلب، وما يحيل عليه معنى الغرس؛ من التجذّر والتخلل في القلب كما تتخلل الجذور باطن الأرض، وما يدل عليه من النماء والحياة، وهذه المعاني كلها حاضرة في خطاب الحبّ وفي فصوله، ووصف نشأة الحبّ بمفردة

(١) المصدر السابق، ٤٠

(٢) الأصفهاني، "الزهرة"، ٤٥

(الغرس) يباين أشدّ المباينة مفردة (الوقوع) الشائعة في أدبيات الحبّ الغربية[١]، وشتّان ما بين الوقوع والغرس.

وفي تمهيد الكتاب يستفتح الأصفهاني خطابه بتأسيس قاعدة لماهية الحبّ؛ مستجلبًا الشواهد من خلفيته الدينية والثقافية، محاولًا استكناه سبب نشأته في نفوس الخلق، حيث يبتدئ بالحديث عن تشاكل الأرواح، ومن الشواهد التي أوردها، حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن الأرواح وتآلفها، ثم قول طرفة بن العبد، ثم ما زعمه بعض الفلاسفة اليونانيين؛ أن الله -جلّ ثناؤه- خلق كل روح مدورة الشكل، ثم قطعها نصفين وجعل في كل جسد نصف، فإذا لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع مع النصف الذي معه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة، وتتفاوت أحوال الناس في هذا على حسب رقّة طبائعهم، وفي هذا نلحظ اتكاءه على كثير من المقولات الفلسفية اليونانية التي تصف ظاهرة الحبّ، إلا أنه كثيرًا ما يُسبق أقوالهم بمفردة: (وزعم) وذلك في توافق الأبراج بتوافق الطباع وغيرها من الآراء[٢]، بينما تغيب هذه المفردة عند استشهاده بأقوال آخرين تستشعر موافقته لقولهم[٣]، مما يشعر القارئ أنه يستشهد بأقوالهم للاستئناس لا الموافقة الكليّة، أو أنه يتحرّز حين يوردها.

(١) يقف عالم النفس إيريك فروم في كتابه (فن الحبّ) عند مفردة (الوقوع) ويرى أن هذه المفردة نشأت من منطلق مفهوم هذا العصر لمعنى الحبّ؛ الذي هو نتيجة لأيديولوجيا تعمم فكرة "الحبّ الرومانسي"، بينما الحبّ الحقيقي-كما يراه- هو (الوقوف) في الحبّ لا الوقوع؛ والذي يعني تعلم فن الحبّ تعلمًا مقصودًا، وهو الحبّ الواقعي القائم على التكافل. انظر: أريك فروم. "فن الحبّ-بحث في طبيعة الحبّ، أشكاله"، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، (د.ط، بيروت: دار العودة، ٢٠٠٠م): ١٣

(٢) الأصفهاني، "الزهرة"، ٥٣- ٥٥

(٣) المصدر السابق، ٥٨

وفي خاتمة هذا الباب، يُهيّئ القارئ لما سيأتي من أخبار وأشعار تبين كنه هذا الشعور وأثره في النفوس، فهو على وعي بما ينتهجه من أساليب مقصودة، وما يورده من أبواب مرتبة ترتيبًا بحسب ما يستقصيه في هذه الظاهرة من بدء نشوئها، ثم ما يعرض عليها من أحوال، إلى منتهاها.

في البدء يحاول الأصفهاني فهم كنه هذه العاطفة، حتى يصل إلى أنها شعور يُفقد المرء الإحساس الفيزيائي بالزمن(١)؛ فهو كالسّكرة التي يشعر بها شارب الخمر؛ في اختلال الشعور بالزمن فيها، وسرعة انقضائها، وللزمن في الحبّ مداره الخاص ومقياسه. ومع هذا، فأهل الحبّ يُزرون على عيش من لم يتطعّم مذاقه، ولم يتعبَّد باسترقاقه(٢)، مع ما يجتمع فيه من النعيم والبؤس، غير أنه يَعِدُ هؤلاء الذين تنعموا بالحبّ بقصر أيام الحبّ وطول أيام البؤس بعدها؛ وذلك تحت فصلٍ عنونه بـ(من طال سروره قصرت شهوره) يقول معلقًا على أحوالهم في أشعارهم: "فهؤلاء الذين قد سامحهم الدهر بصحابهم فاستطابوا المقام على حالهم. ومن وصل إلى شيءٍ نفسِهِ تقاصرت عليه الأيام، وراصدته بمكروهات الشهور والأعوام"(٣)، وهنا يتبين ما يدافعه الأصفهاني وهو يؤلف كتابه، من مشاعر الشوق والحنين وفقد من يحب، فيتجلى ذلك في تعليقاته.

٣– آراؤه في ظاهرة الحبّ:

ذكر الأصفهاني مسببات تكوّن الحبّ في النفس البشرية، وأسباب تمكنه، محاولا الإحاطة بهذا الباب من جوانب عدّة:

(١) المصدر السابق، ١٠٨–١٠٩

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) المصدر السابق، ١٠٩

أولا– دواعي تكوّن الحبّ وأسبابه:

يرى الأصفهاني أن (إرسال النظر) من أبرز مسببات تكوّن الحبّ وأهمها، وقد جعله في مطلع كتابه، ومبتدأ فصوله، فجعل عنوانه: "من كثرت لحظاته دامت حسراته"، وفيه شَرَح مسببات تكوّن الحبّ ومراتبه؛ إذ بيّن أن ثمّة علاقة جدلية بين سبب تكون الحبّ وتمكّنه؛ فالمحبة إذا جاءت لهوا ونظرا؛ عَذُبَ ابتداؤها وسرع انقضاؤها، أما المحبة التي تتمكن في القلب حتى يعييه الهوى، فهي التي تجيء مُرتّبة على التمام في المصافاة، فالسبب السريع يُنشئ حبا سريع الذهاب، أما الأسباب العميقة التي لا تنشأ في وقت سريع، فهي المحبة التي يطول بقاؤها، يقول مبينًا هذه الفكرة بعد إيراده أبياتًا تعرض جزءًا من هذه الفكرة: "فالمحبة ما دامت لهوًا ونظرًا فهي عذبة المبتدأ سريعة الانقضاء. فإذا وقعت مرتبة على التمام في المصافاة؛ تعذرت قدرة القلب على هواه، فحينئذٍ تَضِلّ أفهام المتميزين، وتُبطل حيل المتفلسفين"[(١)]، فالنظر والسماع، أحدهما أو كلاهما معا؛ هما سببان للحب وليس نتيجة له؛ لذا لا يضعهما ضمن مراتب الحبّ.

ثانيا– مراتب الحبّ:

إن من أهم ما يقوم عليه خطاب الحبّ عند أبي بكر الأصفهاني محاولة وصفه، وإيراد مراتبه التي يسميها: "أحوال ما قبل العشق وما بعده" وهو إذ ذاك يفصل في أحوال هذه العاطفة التي أعيت الفلاسفة والعارفين أن يحيطوا بها، وستلحظ أنه يُقيم تفسيراته لتلك المراتب على الجانب اللغوي، وهو أول من تعرض لمصطلحات الحبّ ورتبها ترتيبا تصاعديا[(٢)].

(١) الأصفهاني، "الزهرة"، ٦٢

(٢) عبد الله، محمد حسن، "الحبّ في التراث العربي"، ١٣٣

في تصنيفه لمراتب الحبّ، يقول مبينا أن العشق مرتبة من مراتب الحبّ:"ولها مراتب فأول ما يتولد عن النظر والسماع الاستحسان..."[١]. فمراتب الحبّ عنده: الاستحسان ثم يقوى فيصير مودة ثم تقوى المودة فتصير محبة، ثم تقوى المحبة فتصير خُلّة، يقول في وصفها: "والخلة بين الآدميين أن تكون محبة أحدهما قد تمكنت من صاحبه، حتى سقطت السرائر بينه وبينه فصار متخللا لسرائره، ومطلعا على ضمائره... ويقال إن الخلة بين الآدميين مأخوذة من تخلل المودة بين اللحم والعظم، واختلاطهما بالمخ والدم"[٢]، ثم تقوى الخُلّة فتوجب الهوى، "والهوى اسم لانحطاط المحبّ في محابّ المحبوب وفي التوصل إليه بغير تمالك ولا ترتيب"[٣]، ثم تقوى الحال فيصير عشقا، "والعاشق يمنعه من سُرعة الانحطاط في هوى معشوقه إشفاقه عليه وضنّه به، حتى إن إبقاءه عليه ليدعوه إلى مخالفته وترك الإقبال عليه. فمن الناس ما يتوهم لهذه العلّة أن الهوى أتم من العشق، وليس الأمر كذلك"[٤]، ثم يزداد العشق فيصير تَتْيما، "وهو أن تصير حال المعشوق مستوفية للعاشق، فلا يكون معها فضل لغيرها، ولا يزيد بقياسه شيئا إلا وجدته متكاملا فيها"[٥]، ثم يزداد التتيم فيصير ولهًا، "والوله هو الخروج عن حدود الترتيب والتعطل عن أحوال التمييز، حتى تراه يطلب ما لا يرضاه، ويتمنى ما لا يهواه، ثم لا يحتذي مع ذلك مثالا، ولا يستوطن حالا"[٦]، وهذا هو آخر أحوال الحبّ ومراتبه.

(١) الأصفهاني، "الزهرة"، ٥٨
(٢) المصدر السابق، ٥٩
(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٤) المصدر السابق،٦٠
(٥) الأصفهاني، "الزهرة"، ٦٠
(٦) المصدر السابق، ٦١

وقد وضع هذه المراتب في الباب الثاني تحت عنوان: (العقل عند الهوى أسير والشوق عليهما أمير)، وبهذا يتبين أنه خصص الباب الأول والثاني بالحديث عن نشأة الحب ومراتبه، وجعل بقية الأبواب في أحوال الحب وآدابه.

١- الحبّ التّام/ المثالي:

هذا المذهب هو العماد الذي قام عليه خطاب الأصفهاني في الحبّ؛ فقد سعى إلى وضع معيارٍ تامٍّ للحب، ودعا المتأدبين والعشاق إلى بلوغه أو الاقتراب منه، وهو يقيس صدق المحبة أو عمق ثبوتها أو بلوغها الغاية على هذا المعيار، نجد ذلك في كثرة ورود العبارات التي تصم الحال بالتمام أو الكمال من مثل قوله: (ليست من أحوال أهل التمام، كان أتمّ حالاً، مقصرة عن حال التمام، ناقصة عن حدّ التمام، وأتمّ من هؤلاء في الحال، زائل عن مرتبة الكمال، حال تامة، ضعف الحال، ضعف الجزع، ...) من أمثلة ذلك تعليقه على أبيات ليزيد بن الطثرية يقول فيها:

أعيب الذي أهوى وأُطري جواريا ... يرين لها فضلا عليهنّ بينا
برغمي أطيل الصد عنها إذا بدت ... أُحاذر أسماعا عليها وأعينا
فقد غضبت أن قلت إن ليس حاجتي ... إليها وقالت لم يُرِد أن يُحِبنا
وهل كنت إلا معمدا قانط الهوى ... أسرّ فلما قاده الشوق أعلنا
أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

ثم قال معلقا عليها: "ولعمري إن هذا لمن نفيس الكلام غير أن في البيت ضعفا؛ وذلك أنه جعل سبب تمكن الهوى من قلبه أنه صادفه خاليا لم يسبقه إليه غيره. **وليست هذه من أحوال أهل التمام**؛ إذ كل من صادف محلاً لا يُدافع عنه، لم يتعذر عليه طريق

التمكن منه"[١]، وهذه لفتة لطيفة تدل على دقّة نظر الأصفهاني في تأمله للحب ونوازعه واشتغالاته؛ فليس من أهل التمام من جعل سبب الحبّ خلوّ القلب.

ومن ذلك تعليقه على أبيات جميل بثينة التي يقول فيها:

وإني لأرضى من بثينة بالذي ... لو أخبره الواشي لقرت بلابله

بلا، وبأن لا أستطيع، وبالمنى ... وبالوعد، حتى يسأم الوعد آمله

وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضي ... أواخره لا نلتقي وأوائله

فيقول في آخر تعليقه: "إلا أنه وإن كان قد بالغ في القناعة، فإنه قد التمس التعلل بالوعد، وبتأميل اللقاء على البعد، ومن قنع بترك اللقاء، وأقام على حال الوفاء؛ **كان أتمّ حالا**"[٢]، وأورد أبياتًا لأبي صخر الهذلي:

ويقر عيني وهي نازحة ... ما لا يقر بعين ذي حلم

أني أرى وأظن أن سترى ... وضح النهار وعالي النجمِ

فقال معلقا عليها: "وهذه لعمري قناعة مفرطة في بابها، وإن كانت مقصرة عن حال التمام؛ لأن صاحب هذه الحال يستجلب بُعدًا لنفسه نسيم الوصال"[٣]، وهو هنا يُشنع على من يقنع من الوصال بالنظر إلى النجوم كما ينظر هو إليها وهذا ينقص من تمام الهوى.

ومن ذلك ما أورده تحت عنوان: (من مُنع من كثير الوصال، قنع بقليل النوال) بعد أن ذكر عدّة أبيات شعرية علّق عليها بقوله: "وكل هذه الأحوال ناقصة عن حد التمام، على عُجْب أصحابها بها وافتخارهم بذكرها، وتوهمهم أن قد تهيأ لهم على

(١) الأصفهاني، "الزهرة"، ٦٢

(٢) المصدر السابق، ١٥٦

(٣) الأصفهاني، "الزهرة"، ١٦١

أنفسهم ما لم يتهيّأ لغيرهم من صبرها لأحبابهم على الحظ اليسير من نوالهم. وأتم من هؤلاء في الحال، وأحسن صبرا على قليل النوال، بل على ترك جميعه، من رضي من النيل بسلامة محبوبه، وكان ذلك نهاية مطلوبه"(١). وهذه الحال التامة التي يقنع فيها المحب بسلامة محبوبه عن أي وصال.

ومن الكمال في الحبّ أن يشكو المحب لحبيبه؛ ليطلعه على ما في ضمائره لا أن يبتغي منه النوال، ففي الفصل المعنون بـ(ليس بلبيب من لم يصف ما به للبيب)، يختمه بقوله: "إن الكامل في حاله هو الذي كان غرضه في إظهار إلفه على كل ما يلقى به أن يجعلها مشاركا له في علم ضمائره، ومتحكما معه لا بل عليه في سرائره، فلا يتحكم هو حينئذ على خليله في أمر، ولا يستظهر عليه بسرٍّ، وكل من زال عن هذه الحال فزائل عن مرتبة الكمال"(٢).

وحين يصف الحال التامة يشنع بأحوال الناقصين عنها، ومن ذلك قوله: "ولسنا قادرين على ذكر حال تامة عن أحد من الشعراء في هذا الباب؛ لأن كل واصف بوصفه أدل الأشياء على ضعفه. فأهل التمام إذن سكوت عن الوصف، مستغرقون في غمراته، مشتغلون به عن صفاته"(٣)، جاء هذا النص تحت باب (من قصر نومه طال ليله)، وهو هنا يأخذ على الشعراء وصفهم لطول ليلهم، ففراغهم لوصف معاناتهم قدح في محبتهم، وهذا يدل على ضعف أحوالهم.

ومن ذلك قوله تحت باب (من قصر عن مصاحبة الجاد لم تنفعه مساءلة الدار): "وأما إخباره بأنها تهيج هواه وادّكاره، فهو أيضا معنى غير مبتدع، إلا أنه يدل

(١) المصدر السابق، ١٦٢

(٢) المصدر السابق، ٩٠

(٣) الأصفهاني، "الزهرة"، ٣٨٢

على ضعف في الحال، ونقص في الجزع"[١]، وهو هنا يأخذ على المحبين أن تهيج الأطلال والديار الخالية هواهم، فالمحب الكامل لا يُذكِّره ما يراه بحبيبه؛ لأنه في شغل دائم به، وهذه حال قد تعلو عن طبيعة البشر.

٢– الحبّ صامت والشوق فاضح/ تفكيك وظيفة الشوق:

تأتي وظيفة الشوق في خطاب الحبّ (بالإفصاح عما أُضمر)؛ فالشعور وحده يمكن كتمانه؛ أمّا وقد بلغ معه حدّ الاشتياق فلا قدرة للمحب على الكتمان؛ إذ يصاب الحبّ بالعِيّ فإذا ما بلغه الشوق أفصح، فالمحرك الرئيس للإفصاح عنده هو بلوغ حدّ الشوق لا شعور الحبّ نفسه، وهو يتخلل أحوال الحبّ جميعها، يقول مبينا وظيفة الشوق: "والشوق تابع لكل واحدة من هذه الأحوال. والمستحسِن يشتاق إلى ما يستحسنه على قدر محله من نفسه. ثم كلما قويت الحال قوي معها الاشتياق، فالحبّ وما أشبهه يتهيأ كتمانه، فإذا بلغتِ الاشتياق بطل الكتمان"[٢]، ففي الخطاب يعلي الأصفهاني من قيمة التستر والإخفاء والتكتم إلا في أحوال خاصة، وهو مع ذلك يجعل قوة الشوق وضعفه للشيء المستحسن، معيارًا لقدر محبته له، حيث إنه بقدر الشوق يستبين قدر المحبة، والشوق مفصح عما كتم وستر، ولذا كان دلالة عليه.

(١) المصدر السابق، ١٤٢

(٢) المصدر السابق، ٦١

المبحث الثاني: تعدد شخصيات المؤلف في الكتاب

يظهر في خطاب الحبّ عند الأصفهاني تعدد شخصيات المؤلف؛ فتراه في أغلب تعليقاته ينطلق من نظرة العاشق المتبصِّر بالحبّ وأحواله، فترى نظراته صادقة نفّاذة، وتجد في أسلوبه عذوبة وطلاوة نشأت عن جمال النفس المحبة؛ التي صقلها الوجد، ورقّقتها لوعة الهوى. وفي أحايين أخرى تراه مشتملا جبّة الفقيه الفيلسوف؛ همّه أن يقف على المقدمات والنتائج، ويزن الأمور بالقياس الصوري والمنطق العقلي بعيدًا عن الواقع النفسي؛ فيخرج حديثه ثقيلًا على النفس، يكثر فيه التكلّف، ويغلب على أسلوبه الجفاف والتعقيد. وقد تجتمع هاتان الشخصيتان في موضع واحد؛ فيبدو الأصفهاني العاشق مثاليًا، يُلزم العشاق بأخلاق متعالية، ويفرض عليهم ما لا طاقة لهم به، وذلك حين يتحدث عن الحال التامة، ومرتبة الكمال(١).

أولا–المؤلف الفقيه والفيلسوف:

ذكرنا في مقدمة هذه الدراسة كثرة تأليف الفقهاء في ظاهرة الحبّ، وعللنا ذلك أن علم الفقه يهتم بتأصيل العلاقات الإنسانية وتنظيمها، فلا غرو أن تظهر شخصية الأصفهاني الفقيه في ثنايا خطابه، إلا أن ذلك بدا في مواضع قليلة، وذلك حين يذكر الحقوق، والأخلاقيات، فتراه يتلبّس لبوس الفقيه، ويشيع المنطق في خطابه، فيلتفت عن أسلوب الأديب العاشق إلى أسلوب الفقيه، وتبدو لغته مباشرة ومنطقية وصارمة، نجد مثل هذا في قوله: "الوفاء اسم للثبات على الشرائط فكل من عقد على نفسه أو عقد عليه غيره ممن يلزمه عقده شيئا فثبت عليه لم يزل عنه سمى موفيا، وكل من شرط على نفسه شرطا وزال عنه للزوال سُمّي غادرا"(٢).

(١) الجوادي، عبد الستار، "الحبّ العذري"، ١٥١

(٢) الأصفهاني، "الزهرة"، ٤٧٢

ومن أمثلة ذلك أنه يقف منصفًا المحب على نفسه، وذلك في المعنى الذي أنشده يزيد بن الطثرية:

يقولون صبرا يا يزيد إذا نأت ويا رب لا ترزق على حبها صبرا

فيقول: "فهذا يختار لنفسه البلاء ضنا بمحلِّها من الهوى. ولعمري إن هذه لحال وكيدةٌ، وإنها لو فارقته حتى يرى نفسه بعين الحرية مِن مُلكها لانتقل عن رأيه وندم على وفائه"(١)، وهذا حديث منطقي عاقل، يندر أن يذكره الأصفهاني، الذي غلب على خطابه التحدث بلغة العشاق؛ الذين يتذللون لأحبائهم ويفدونهم بأنفسهم، وهذا الرأي غلب عليه منطق الفقيه كما ذكرنا.

ومن ذلك رأيه في بعض الأبيات التي خرجت عن الوصف المقبول شرعًا وعرفًا، فقال مُعلّقًا عليها: "فأمّا هذا النحو من الشعر فلست أنشط لذكره، لا من شعر امرئ القيس ولا من شعر غيره، فهو فعل خارج عن حدّ الديانة والمروءة، وما خرج عن حدّ هذين البابين تعدّى عيبه من فاعله إلى ناشره ومستحسنه"(٢)، وهذا منطق الفقيه الذي لا يقبل من الشعر ما يصف حال المحبين وصفا يخالف الديانة والمروءة، فلا يباح للشعراء ما لا يباح لغيرهم، بل إنه يشنع على من ينشره ويستحسنه، فهو وإن كان يقبل من الشعراء ما يصف حال المحبين إلا أنه يتوقف عند الوصف الفاحش البذيء، فلا يورده إلا أن يستدرك عليه.

ومن ذلك ما نجد في بعض المواضع من الاستدلال بالآيات الكريمات على ما يذهب إليه من رأي في أحوال المحبين؛ من مثل تعليقه على قول من عاب تغير حال المحب عند رؤية حبيبه؛ إذ يرون أن من استوفى الهوى منه حقه، وتناهى به إلى الغاية؛

(١) الأصفهاني، "الزهرة"، ٦٨

(٢) المصدر السابق، ١٢٨

ما كان اللقاء يزيد شيئًا أو ينقصه[١]، فقال: "على أنّه من طلب لآدمي مثله بما لم يطالب الله عباده فأخلق بأن يكون ظالماً. وقد مدح الله -تبارك وتعالى- قومًا فقال: ﴿الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾[٢]، فلم يعبهم -تعالى- بأن كان ذكره بحضرتهم مُظهرًا عليهم ما لم يكن قبلُ موجودًا منهم"[٣]، فهو في بعض مواضع من خطابه يقيس أحوال المحبين بما يرد في القرآن الكريم من ذكر أحوال المحبين من عباد الله، أو صدق المحبة وتفنيد أقوال غيرهم من الأقوام مثل استدلاله بقول الله تعالى: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾[٤]، فاستدلّ على أن عقاب الله لهم على ذنوبهم دليل على انتفاء محبتهم؛ فقاس عليها أن الحقد والموجدة محال أن ترد بين المحبين هزلاً أو جدًّا[٥].

وهو حين يذكر ظرافة المحبين يلزمهم بالعفة لسببين؛ الأول: ديانة وعرفًا، والثاني: أن العفة تورث إبقاء الودّ بين المحبين؛ وقد جاء ذكر هذا في الباب الثامن تحت عنوان: (من كان ظريفًا فليكن عفيفًا)، ذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم[٦]: "من عشق فعفّ فكتمه فمات فهو شهيد"[١]، فقال معلقًا على هذا

(١) الأصفهاني، "الزهرة"، ٨٢

(٢) سورة الأنفال، الآية ٢

(٣) الأصفهاني، "الزهرة"، ٨٣

(٤) سورة المائدة، الآية ١٨

(٥) الأصفهاني، "الزهرة"، ٧٩-٨٠

(٦) يذكر ابن القيم في كتابه (الداء والدواء) عن تخريج هذا الحديث: "وأما حديث: "من عشق فعف" فهذا يرويه سويد بن سعيد، وقد أنكره حفاظ الإسلام عليه. قال ابن عدي في كامله: هذا الحديث ما أحد إلا أنكره على سويد، وكذلك ذكره البيهقي وابن طاهر في =

الحديث: "ولو لم تكن عِفّة المتحابين عن الأدناس، وتحاميهما ما ينكر في عرف كافة الناس؛ محرمًا في الشرائع، ومستقبحًا في الطبائع، لكان الواجب على كل واحد منهما تركه إبقاء وده عند صاحبه، وإبقاءً على ودّ صاحبه عنده"(٢)، وهذه التفاتة خبير في الحبّ، وفقيه في أحوال العلاقات الإنسانية؛ فالعفة بين المحبين تبقي على دوامها؛ لترفعها عما يقدح أو يشين.

ومن الأمثلة التي تبين عن روح الفيلسوف والحكيم؛ كثرة إيراده لأقوال الفلاسفة من الغربيين من مثل ذكره أقوال المتفلسفين كما يصفهم عند ذكر أقوالهم بشكل عام(٣)، وذكره لأقوال أفلاطون(٤)، وبطليموس(٥)، وجالينوس(٦)، وكثرة إيراده للآراء التي تبين عن نَفَس الحكيم من مثل قوله: "وعلى أنه لا ينبغي للعاقل أن يُفرط في الجزع من غِيَر الأيام؛ فإن الدهر حال بعد حال، وكما كان اتصال السرور ذريعة إلى

=

الذخيرة والتذكرة، وأبو الفرج ابن الجوزي وعدّه من الموضوعات، وأنكره أبو عبد الله الحاكم على تساهله، وقال: أنا أتعجب منه. قلت: والصواب في الحديث أنه من كلام ابن عباس– رضي الله عنهما– موقوفا عليه، فغلط سويد في رفعه". انظر: ابن القيم الجوزية، "الداء والدواء ". تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، (ط١، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، ١٤٢٩هـ): ٥٦٨

(١) الأصفهاني، "الزهرة"، ١١٧

(٢) المصدر السابق، ١١٧

(٣) المصدر السابق، ٥٣

(٤) المصدر السابق، ٥٤

(٥) المصدر السابق، ٥٥

(٦) المصدر السابق، ٥٥، ٥٨

وقوع المحذور، وكذلك ربما كان وقوع المكروه من أقوى الأسباب لرجوع المحابّ"[1]، ومثل هذه الآراء الحكيمة التي تكثر في خطابه، يختلط بها منطق العاشق، الذي تراه في غالب أحواله يرجو ويحاذر.

ثانيًا– المؤلف العاشق:

يظهر المؤلف العاشق في أغلب أبواب الكتاب، ومنه ينطلق في صياغة خطابه في الحبّ، وقد وضع له معيار التمام أو الكمال؛ فإما أن يكون الشاعر دون ذلك أو أنه قد بلغ ذلك الحد.

في تأمله لتجليات الحبّ في الشعر؛ ينفذ الأصفهاني إلى روح المحب، يتحسسه ببصيرته لا ببصره، فيعلق على أبيات للحسين بن مطير الأسدي مُنطلقا من منظورٍ نفسيٍّ لافتٍ يجلي عن بصيرة نافذة بروح العاشق. صدّر تخيره لهذه المقطوعة بقوله: "وهو من جيّد ما قيل في معناه" يقصد قول الحسين:

قضى الله يا أسماء أن لستُ زائلاً ... أحبك حتى يغمض العين مغمضُ

فحبك بلوى، غير ألا يسرني ... وإن كان بلوى أنني لك مبغضُ

إذا ما صرفتُ القلب في حب غيرها ... إذا حُبُّها من دونه يتعرّضُ

فيا ليتني أقرضتُ جلدًا صبابتي ... وأقرضني صبرًا على الشوق مقرضُ

فعلّق مستنكرًا وصف الشاعر حبها بأنه بلوى، وذكره البغض في معرض قصيدة عن الحبّ: "أما قوله (فحبك بلوى) فكلام قبيح المعنى، وذلك أنه إن كان صادقًا في هواها، مختارًا لها على ما سواها، فقد أتى على نفسه؛ إذ جعل اختياره مضرا بقلبه. وإن كان لم يدخل في الهوى مختارا، وإنما وقع به اضطرارا، فقد أخطأ؛ إذ سمى ما هو موجود في طبعه مفارق لنفسه باسم البلوى التي تعرض له، وتنصرف عنه. وأما إخباره

(١) المصدر السابق، ١٧٠

بأنه لا يُسَرُّ بأن يكون مبغضا لها، فكلامٌ لو سكت عنه كان أولى"[١]. فهو ينأى بالمحبين أن يذكروا ما يُستقبح ذكره في معرض الحبّ، مثل وصفه الحبّ بـ (البلوى)، أو ذكره مفردة (البغض) في سياق الحبّ، وهذا رأي العاشق الخبير؛ الذي لا يرى أن الحبّ يعرض للنفس حينا وينصرف عنها حينًا، فلم يصح تشبيهه بالبلوى في مفارقتها للنفس أحيانًا.

ومما يلحظ في خطاب العاشق أنه كثيرًا ما يفتتح بعض الأبواب بجملٍ مؤثرة، بليغة، ومختصرة، لا تخرج إلا من نفس كواها الهوى؛ من ذلك ما ذكره في مبتدأ باب (ما خُلق الفراق إلا لتعذيب العشاق): "أمّا الفراق فمستغن ببشاعة اسمه عن الإغراق في وصفه"[٢]، وكذلك في مفتتح باب (في الوداع قبل الفراق بلاغ إلى وقت التلاق): "فِعل الوداع وتركه، نقص كلّه لمن قدر أن يرد الفراق عن نفسه"[٣].

ومن ذلك أخذه على بعض العشاق أقوالهم، من مثل تعليقه على بيت توبة بن الحمير:

قالت مخـافة بيننا وبكت لـه ... والبين مبعوض على المتخوّفِ:

لو مات شيء من مخافة فُرقةٍ ... لأماتني للبين طـــول تخوفي

ملأ الهوى قلبي فضقت بحمله ... حتى نطقـت بـه بغير تكـلفِ

يقول: "فليلى الأخيلية –عفا الله عنا وعنها– إن كان ما حكاه لنا توبة عنها في البيت الثاني حقًا، فإنها كانت جاهلة بأحوال العشاق، غافلة عمّا تولّده روعات الفراق، ولعمري إن مراثيها في توبة بعد وفاته لدالّة على أنها لم تتعلق من الهوى إلا

(١) الأصفهاني، الزهرة، ٦٥،٦٦

(٢) الأصفهاني، الزهرة، ٢٦٨

(٣) المصدر السابق، ٢٥٩

بأطرافه؛ إذ لو كان الهوى قد بلغ بها أقصى الحال، كانت حياتها بعد وفاة توبة ضربا من المحال"[1].

غير أنه ينعى على الشعراء هذا السرف الشديد في اليأس حتى لا يجد لقائل هذين البيتين طريقا لإعذاره:

من حبها أتمنى أن يـلاقيني من نحـو بلـدتها نا ع فينعاهـا
كيما أقول فراق لا التقاء له وتضمر النفس يأسا ثم تسلاها

وقريب منه قول البحتري الذي يبين أنه يريد محبوبته ما دامت تواصله فإذا هجرته انصرف قلبه عنها، وذلك في قوله:

أريد لنفسي غيرها حين لا أرى مقاربة منها ونفسي تريدها

وفي الحبّ الذي يراه الأصفهاني صادقًا يشف عن روح محبة حقيقية، تظل على دوام حبها لا تتغير بتغير أحوال المحبوب، لا بقربه وبعده، ويجد ذلك ماثلا في قول البحتري:

يهواك لا أنّ الغرام أطاعه حتما، ولا أن السلوّ عصاه
متخير ألفاك خيرة نفسه ممـن نـــآه الـــودّ أو أدنـــاه

ويتجلى المؤلف العاشق في تعليقاته النقدية على معاني الشعراء المحبين المتغزلين، من مثل مخالفته لهم في معانيهم وتصوير أحوالهم أو موافقته، ففيها تتبين فلسفته في الحبّ وأبعاده وحدوده.

ومن مظاهر تلوّعه بالعشق أنه ينعى على الشعراء تبرمهم بالرقيب، كقول الشاعر:

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نطق كلاما تكلمنـــا بأعيننـــا ســـــرّا

(١) المصدر السابق، ٢٣١

فنقضي –ولم يعلم بنا– كل حاجةٍ ولم نُظهر الشكوى ولم نهتك السترا

ولو قذفت أحشاؤنا ما تضمّنت من الوجد والبلوى إذن قذفت جمرا

فيقول معلقًا عليه: "صاحب هذا الشعر البائس مغترّ بالزمان، جاهل بصروف الأيام، يتبرم بالرقيب مع مشاهدة الحبيب. وهو لا يعلم أن هذه الحال، تتقاصر عنها الأيام، وتنقطع دونها الآجال"(١). فالعاشق الذي تلظى بالفراق والهجر، وقاسى من الدهر مكايده، علم أن هذه الحال من أهون أحوال المحبين.

ومن المواضع كذلك تعليقه على أبيات جميل(٢):

ولربّ عارضة علينا وصلها بالجدّ تخلطه بقول الهازلِ

فأجبتها بالقول بعد تستر حبي بثينة عن وصالك شاغلي

لو كان في قلبي كقدر قلامة فضل وصلتك أو أتتك رسائلي

فقال: "أما هذا فقد دلنا بغاية جهده على شدة تمكنها من قلبه وأخبرنا مع ذلك في شعره أنه لو تهيأ خلاص شيء من حبه من يدها لصرفه إلى غيرها وهذه حال لا ترضي أهل الوفاء ولا يستعملها أهل الصفاء"(٣). وهو يأخذ على المحب ما يستبين من ضعف وفائه، ولو كان مقصده وصف استحكام حبها على قلبه، لكن قبوله لوصل غيره إن ضعف حبها فهو دليل على نقص في تمام الهوى.

ومما يتبين عظيم معرفته في ظاهرة الحبّ، وصفه العاشق الذي يشوقه نسيم الريح، أو لمعان برق، أو سجع حمام، ناقص عن حال التمام؛ وذلك من جهتين، إحداها: "قلة صبره على فقد صاحبه حتى يحتاج أن يرى ما يشوقه بذكره، والأخرى

(١) الأصفهاني، الزهرة، ١٤٩

(٢) المصدر السابق، ١٥٥

(٣) المصدر السابق، ١٥٦

أن من كانت هذه صفته فإن الصبابة لم تتمالك على قلبه، فتشغله عن أن يتشوّق بشيء يلم به. غير أن الشوق بما ذكرناه إنما يُقصِّر بأهله عن درجة الكمال، وليس بمُدخل لهم في جملة الموصوفين بالنقص والإخلال"[1]. وهو هنا يضعهم في منزلة بين منزلتين؛ فلا هم من أهل التمام، كون تشوقهم ظهر بسبب خارجي، ولا هم من أهل النقص؛ لأنهم لم يأتوا بما يصم حالهم بالنقص.

(١) الأصفهاني، "الزهرة"، ٣٠٣

المبحث الثالث: وظائف الخطاب:

يقوم خطاب الحبّ في كتاب الزهرة على وظائف ذات قيمة دلالية، تتضح فيما يلي:

أولا– الوظيفة الإغرائية:

تتمثل في العنوانات التي ارتضاها لأبواب كتابه، وتشكلت في جنس المثل والحكمة، مما جعلها تغري القارئ بالنظر فيما ورد تحتها من آراء وتعليقات، والعنوانات أمثال استغرقت الكتاب كله، منها قوله: "من كثرت لحظاته دامت حسراته"، "من طال سروره، قصرت شهوره"، "من مُنع من كثير الوصال، قنع بقليل النوال"، "من لم يلحق بالحمول بكى على الطلول"[١] وغيرها.

ثانيا– الوظيفة التعليمية والتأديبية:

إن ما يتميز به هذا الخطاب أنه صادر من فقيه أديب وشاعر؛ فللفقيه سلطته في المجتمع التي تقتضيها وظيفته التعليمية والإرشادية للناس، بما يخص أمور دينهم ومعاملاتهم، وما يلفت النظر أن الكتاب الآخر الذي شُهر بظاهرة الحبّ في التراث العربي هو "طوق الحمامة" للفقيه ابن حزم الأندلسي؛ فالحبّ والفقه يشتركان في أنهما مما تختص به أعمال القلوب، وهما في الآن نفسه يؤثران تأثيرًا مباشرًا في سلوك الإنسان وتوجهاته وتعاملاته اليومية.

في هذا الخطاب تتجلى الوظيفة التعليمية في التعليقات التي يُعقِّب بها على مختاراته من المقطوعات الشعرية، وأكثر ما برزت هذه الوظيفة في مفتتح كتابه؛ في

(١) الأصفهاني، "الزهرة"، ٤٣

تعريفه للحب وعلاماته ومنازله، وتظهر كذلك في بدايات فصوله على طول الكتاب وهي كثيرة؛ فهو يفتتحها بعرض وتقسيم وتصنيف مسرودة بأسلوب تعليمي؛ من هذا قوله تحت فصل (من أحبه أحبابه وشى به أترابه): "مكايد الوشاة كلها تنقسم على ثلاثة أقسام: فسعاية المتحابين إلى غيرهما، وسعاية المحب إلى محبوبه، وسعاية المحبوب إلى محبه، فهذه عند كثير من الأدباء أضعف المكايد أثرًا. وليس الأمر كذلك، ولا هو أيضًا بضد ذلك، ولكنه محتاج إلى نقصان؛ أما العشاق والمتيمون فلا يقبلون قول الوشاة، بل لا يسمعونه؛ لأن الثقة منهم بأحبابهم ماحية لقول من وشى بهم، وأما أهل الوله المدلّهون فيقبلون مالا يسمعون، فضلا عما يسمعون، لما قدمنا من وصفهم، وغلبة الظن على أنفسهم"(١).

ومنها كذلك في قوله تحت فصل (من لم يعاتب على الزلة فليس بحافظ الخلّة): "المعاتبة على الذنوب من المحب والمحبوب قد تجري على ضروب: فمنها معاتبة استتاب تقي من الارتياب، ليزول الشك بما يجري فيها من الجواب، ومعاتبة تقع بعد اليقين يقصد بها العاتب إلى أن يعلم هل من ذلك الذنب عذر؟ أم هو داخل في باب الغدر؟ ومنها معاتبة توقيف تجري جهة التعنيف...وترك جميع المعاتبة يدخل في باب الإهمال"(٢). ففي هذا النص وغيره تتجلى الوظيفة التعليمية التي تسعى إلى التفصيل في أحوال الحبّ، لتبصرة المتأدبين بتلك الأحوال وما يعترضها، وتعليمهم ظواهرها ومسبباتها، وما يتوجب عليهم فعله في تلكم الأحوال.

(١) الأصفهاني، "الزهرة"، ١٨١

(٢) المصدر السابق، ١٨٩

أمّا الوظيفة التأديبية فتتجلى في مواضع عدّة يصعب حصرها هنا، لكنني سأورد أمثلة عليها؛ منها أخذه على الشاعر أن حبه تولّد عن استحسان صورة وقدٍّ، قال معلقا على أبيات للبحتري: "أما هذا الشعر فمن أضعف شيء أعرفه، وذلك أن صاحبه إنما استحسن صورة وقدًّا فمتى تغيّر حسنها، أو رأى ما هو أحسن في عينه منها، اتّبعه وتركها. على أنه مع افتقاره إلى خليله، وعدمه لشكله ونظيره، منتقد في هواه؛ فمرّة يتسخط ومرة يترضاه، حتى "يمسي مولى ويصبح عبدا" وهذه حال خسيسة فإن كان ولا بد للمحب من التباعد عن المحبوب فليكن ذلك ظاهرا في الأفعال، غير معتقد في القلوب"(١).

ومن ذلك قوله تحت فصل عنونه بـ(من طال سروره قصرت شهوره) في توجيه أخلاقي واصفا حسن حال المحبين في الوصل بعد الانقطاع: "فكيف وحال الصفاء إذا ابتدأت بين المتحابين بالمشاكلة الطبيعية؟ ثم اتصلت بالحراسة عن الأخلاق الدنيّة؟ ثم عذُبت بالرعايات الاختيارية؟ بلغت بهما الحال إلى حيث انقطعت بهما دونه الآمال، وعلى أن الحزم لمن سومح بالوصال، ألا يُرسل نفسه كل الإرسال، فإن ذلك ربما دعا المحبوب إلى الملال، وإن كان مقيما على رعاية الحال"(٢).

ثالثا– الوظيفة الحجاجية:

يوظف الأصفهاني في خطابه عدّة حجج منها ما يسميه بيرلمان حجّة السلطة (Argument d'autoritĕ)، وهي التي يستخدم فيها المحاجِج هيبة شخص أو مجموعة

(١) المصدر السابق، ٢٣٤-٢٣٥

(٢) الأصفهاني، "الزهرة"، ١١٦

من أشخاص لدفع المخاطب لتبني دعوى ما، ومنهم الأنبياء ورجال الدين والعلماء والفلاسفة والشعراء وغيرهم[1]، لذا نجده يحشده من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأقوال الأولين من الفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة والأدباء وغيرهم ما يؤيد مذهبه، وكذلك فيما يورده من مقطوعات شعرية تعزز من صواب آرائه في الحبّ.

ومن أبرز أمثلته عنده تعليقه على قول الشاعر:

وكيف يحب القلب من لا يحبه بلى، قد تريد النفس من لا يريدها
وكنت إذا ما زرت ليلى بأرضها أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
تحلّل أحقادي إذا ما لقيتها وتنمي بلا جرم علي حقودها

يقول: "أما قوله "تحلل أحقادي إذا ما لقيتها" فهو كلام صحيح، ولو أبدل اسم الحقد بغيره كان أحسن؛ لأن الحقد لا يتولد إلا عن موجدة، فتخفى في النفس، ويظهر غيرها ويرصد صاحبها بالمكافأة عنها. وهذا كله محال بين المتحابين بين باب الجد والهزل جميعا. وقد ذكر الله تعالى جل ثناؤه في باب محبته للمؤمنين دليلا على ما قلناه، وذلك قوله عز وجل: {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء} فجعل- جل ثناؤه- مكافأتهم بالمعاقبة على ذنوبهم دليلا على تكذيب دعواهم"[2].

ومن ذلك أنه جعل انشغال المحب بالزجر والعيافة دليلاً على امتحانه بمفارقة أحبابه أو أمله في وصالهم؛ فهو في قلق دائم يبحث في الكون من حوله ما بشائر

(١) أمقران، "تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان" ٢٢٩،
(٢) الأصفهاني، "الزهرة"، ٨٠

الأقدار ونذرها؛ متفائلا بوصال أحبابه، أو متشائمًا بها ليأس ويسلى، ومما يبين عظم حساسية المحب لما حوله وتأويله للأسماء ورموزها ما أورده من أشعار تؤيد ما ذهب إليه(١)، منها قول جران العود:

جرى يوم جئنا بالجمال نزفّها عُقابٌ وشحّاج من البين يبرحُ

فأمّا العقاب فهو منها عقوبة وأما الغراب فالغريب المطرّحُ

وقول جحدر الفقعسي:

تغنى الطائران ببين سعدى على غصنين من غرب وبانِ

فقلت لصاحبيّ و–كنت أحرى بزجر الطير–: ماذا تخبرانِ؟

فقالا: الدار جامعة بسعدى فقلت: بل انتما متمنيانِ

وكان البان أن بانت سليمى وفي الغرب اغتراب غير داني

وفي هذا ما يدل على أن المحب حين يحبّ فإنه يدخل في حالة مجازية مع الوجود؛ فيستحيل الوجود إلى أم رؤوم ترشد ابنها؛ فما يراه من مشاهد حوله ليست مشاهد يومية عادية؛ بل هي رسائل كونية لها دلالتها المنطبعة في أعماقه، فكأن المحب يرتقي بالحبّ إلى درجة من العلوّ ترقّ بها نظرته للوجود.

وقد تبين لنا أن الأصفهاني في خطابه الحجاجي يوظف الأشعار بتقنيتي الشاهد والمثال، وهو كثيرًا ما يستحضر الأبيات الشعرية شواهد في بداية كل باب ثم يختمها بذكر رأيه، ويقلّ عنده استحضار الأبيات الشعرية على أنها أمثلة يختم بها لتأييد مذهبه، وهذا يكشف عن وعي الأصفهاني بالأساليب الحجاجية التي ذكرها

(١) المصدر السابق، ٣٣٦-٣٤٣

شارلمان في كتابه[1].

يتضح من هذه الأمثلة توظيف الأصفهاني لكثير من تقنيات الحجاج في سبيل إقناع القارئ بوجهة نظره في الحبّ، وهو ما يؤكد أن الحجاج كان مادّة من مواد خطابه في الحبّ، وشكّل- إلى جانب الأبواب المثلية والمكوّن الشعري والمكون النثري- أهم مظاهر بلاغة الخطاب في كتاب الزهرة.

(١) فرّق بيرلمان بين الشاهد والمثال؛ إذ بين أن ذكر الشاهد يكون عادة في البداية ويأتي متعددًا، ثم يستخلص منه نظرية أو قاعدة عامة، بينما المثال يُذكر في النهاية لتأييد الرأي ويكون غالبا مقتضبا وغير متعدد. انظر: بيرلمان، "المصنّف في الحجاج"، ٥٢١-٥٣١

الخاتمة

إن التّصدّر لموضوع الحبّ في القرون الأولى؛ يدلّ على ازدهار الثقافة العربية والإسلامية آنذاك، وقد تبدّى في هذا المؤلَّف النضج المعرفي والفكري لخطاب الحبّ؛ لعل مصدر ذلك ما اختصّ به مؤلّفه؛ من فقهٍ وأدبٍ وشاعرية، وقد ظهرت في هذا البحث عدّة نتائج، أوردُ أهمها:

١- يُعدّ الأصفهاني من أوائل من عرضوا لظاهرة الحبّ، مما وصل إلينا من التراث العربي.

٢- ينطلق خطاب الحبّ عند الأصفهاني من نظرة مثالية، تسعى إلى الارتقاء بالمحبين إلى درجة الكمال وهو ما يسميه (الحبّ التّام).

٣- تبين أن المكوّن العنواني هو النتيجة التي خَلُص إليها المؤلف من كل فصل.

٤- لجأ الأصفهاني إلى الوسيط المِثَلي في تبويبه للأبواب؛ ليضمن سيرورة آرائه في الحبّ.

٥- صيغت العنوانات –في أغلبها– على أسلوب الشرط؛ الذي يؤدي وظيفة التأثير والإقناع من حيث ارتباط الفعل بجوابه؛ وذلك ناتج عن الباعث التأديبي الذي قصده المؤلف.

٦- هيمنت المعاني السلبية في العنوانات على المعاني الإيجابية؛ وهو ما يكشف عن رؤية الأصفهاني لظاهرة الحبّ.

٧- يعدّ (المكون الشعري) المادة الخام التي بنى عليها الأصفهاني خطابه، ليستخلص منها الحكم والعبر، ويكشف عن النوازع الإنسانية؛ فهي تمثّل (عينة) من تجارب حياة الشعراء، وآرائهم.

٨- قام خطاب الأصفهاني في حجاجه على تقنيّ (الشاهد) و(المثال)، مع هيمنة (الشاهد) على غالب خطابه.

٩- ظهرت السلطة الأبوية في المكون النثري؛ متمثّلة في تعليقات الأصفهاني على الأشعار الغزلية ومذاهب الشعراء فيها؛ ما بين موافقتهم والثناء عليهم، أو

مخالفتهم والإنكار عليهم، وسلبهم أحيانا صدق التجربة والشعور.

١٠- غلبت على خطاب الأصفهاني شخصية المؤلف العاشق، الخبير بالعشق والعشاق وما يعتريهم من أحوال متباينة.

١١- حضرت في خطاب الأصفهاني شخصيتان متمايزتان، هما: الفقيه والفيلسوف؛ إذ يتجلى عند الأول الميل إلى التقعيد الأخلاقي، والاحتكام إلى معيار الشرع في ضبط العاطفة، بينما يتبدّى لدى الثاني النزوع إلى التأمل العقلي واستنباط المعنى من التجربة الإنسانية للحب.

١٢- تجلت في الخطاب وظائف عدّة؛ تمثلت في: الوظيفة الإغرائية التي اتخذت من المثل وسيطا إغرائيا للقارئ، وكذلك الوظيفة التعليمية والتأديبية التي توجه السلوك وتؤطره أخلاقيًا، والوظيفة الحجاجية التي تقيم المعنى على المنطق والإقناع، والاستعانة بالتقنيات الحجاجية.

هذه أبرز النتائج التي توصل إليها البحث، وإن خطاب الحبّ في الثقافة العربية بحاجة إلى مزيد بحث واستقصاء؛ لاستخلاص النتائج التي تكشف عن تمثيلات المجتمع آنذاك للحب والمحب والمحبوبة، ولهذه العلاقة الجدلية بين الرجل والمرأة، المتجلية في أزهى وأرقى مراتبها؛ سعيًا إلى فهم أنفسنا عبر فهم نظرة الثقافة التراثية الممتدة من تلك الأزمان إلى زماننا هذا، فما زالت الثقافة تعيد إنتاج نفسها بالوسائط الأدبية الممتدة إلى اليوم ومن أهمها جنس المثل.

المصادر والمراجع

المصادر:

الأصفهاني، أبو بكر محمد بن داود. "كتاب الزَّهرة". تحقيق إبراهيم السامرائي. (ط٢، الأردن: مكتبة المنار، ١٩٨٥م).

ابن جني، أبو الفتح عثمان. "الخصائص". تحقيق محمد علي النجار. (ط٤، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون تاريخ).

الجرجاني، علي. "كتاب التعريفات". تحقيق جماعة من العلماء. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية،١٩٨٣م).

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. "مروج الذهب ومعادن الجوهر". تحقيق كمال حسن مرعي. (ط١، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٥م).

المراجع:

فروم، إريك. "فن الحبّ–بحث في طبيعة الحبّ وأشكاله". ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد. (د.ط، بيروت: دار العودة، ٢٠٠٠م).

شارودو، باتريك، ودومينيك منغنو. "معجم تحليل الخطاب". ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود. (ط١، تونس: دار سيناترا والمركز الوطني للترجمة، ٢٠٠٨م).

بيرلمان، شاييم وآخرون. "المصنف في الحجاج". ترجمة محمد الولي. (ط١، بنغازي: دار الكتاب المتحدة، ٢٠٢٣م).

الجوادي، أحمد عبد الستار. "الحبّ العذري: نشأته وتطوره". (ط١، القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٤٨م).

الشهري، عبد الهادي بن ظافر. "إستراتيجيات الخطاب– مقاربة لغوية تداولية".

(ط١، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤م).

صولة، عبد الله. "في نظرية الحجاج-دراسات وتطبيقات". (ط١، تونس: مسكلياني للنشر والتوزيع،٢٠١١م).

عبد الله، محمد حسن. "الحبّ في التراث العربي". (د.ط، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ١٩٨٠م).

المطعني، عبد العظيم. "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية". (ط١، القاهرة: مكتبة وهبة،١٩٩٢م).

الدوريات:

أمقران، شعبان. "تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان"، *مختبر تجديد البحث في تعليمية اللغة العربية في المنظومة التربوية الجزائرية* ٥، (٢٠١٨م): ٢٢٣-٢٣٦

بسندي، فائزة، ومهسا خليليان. "استكشاف جوانب جديدة من ملامح الرومانسية العربية في شعر الغزل لأبي بكر بن داود الأصفهاني"، *مجلة أوراق ثقافية* ٣٦، (٢٠٢٥م):٣١٧-٣٣٦.

الزهراني، معجب. "خطاب المحبة ضد خطاب التوحش: قضايا الحبّ ومكانة المرأة في طوق الحمامة لابن حزم"، *مجلة موارد جامعة سوسة-كلية الآداب والعلوم الإنسانية* ١٠، (٢٠٠٥م):٤٩-٧٤.

شعرانة، المنصف. "خطاب الحبّ في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي"، *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القيروان ١٤*، (٢٠٢٢م):٢٠٣-٢١٦.

عبد السلام، سعد. "الحبّ بين الدين والفلسفة عند ابن حزم الظاهري"، *مجلة الحكمة* ٩، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، (٢٠١١م):١١٠-١٢٥.

Bibliography

Al-Aṣfahānī, Abū Bakr Muḥammad bin Dāwūd. "Kitāb al-Zahrah". Investigated by Ibrāhīm al-Sāmurrāʾī. (2nd edition, Jordan: Maktabat al-Manār, 1985).

Ibn Jinnī, Abū al-Fatḥ ʿUthmān. "Al-Khaṣāʾiṣ". Investigated by Muḥammad ʿAlī al-Najjār. (4th edition, Cairo: al-Hayʾah al-Miṣriyyah al-ʿĀmmah lil-Kitāb, n.d.).

Al-Jurjānī, ʿAlī. "Kitāb al-Taʿrīfāt". Investigated by a group of scholars. (1st edition, Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah, 1983).

Al-Masʿūdī, Abū al-Ḥasan ʿAlī bin al-Ḥusain. "Murūj al-Dhahab wa Maʿādin al-Jawhar". Investigated by Kamāl Ḥasan Marʿī. (1st edition, Beirut: al-Maktabah al-ʿAṣriyyah, 2005).

Fromm, Erich. "The Art of Love: An Inquiry into the Nature of Love". Translated by Mujāhid ʿAbd al-Munʿim Mujāhid. (Beirut: Dār al-ʿAwdah, 2000).

Charaudeau, Patrick, and Dominique Maingueneau. "Dictionary of Discourse Analysis". Translated by ʿAbd al-Qādir al-Mahīrī and Ḥammādī Ṣumūd. (1st edition, Tunis: Dār Sīnatrā and National Translation Center, 2008).

Perelman, Chaim, et al. "Al-Muṣannaf fī al-Ḥijāj". Translated by Muḥammad al-Walī. (1st edition, Benghazi: United Book House, 2023).

Al-Jawādī, Aḥmad ʿAbd al-Sattār. "Al-Ḥubb al-ʿUdhrī: Its Emergence and Development", (in Arabic). (1st edition, Cairo: Dār al-Kitāb al-ʿArabī, 1948).

Al-Shahrī, ʿAbd al-Hādī bin Ẓāfir. "Discourse Strategies: A Pragmatic Linguistic Approach", (in Arabic). (1st edition, Beirut: Dār al-Kitāb al-Jadīd al-Muttaḥidah, 2004).

Ṣawlah, ʿAbd Allāh. "On Argumentation Theory: Studies and Applications", (in Arabic). (1st edition, Tunisia: Maskīliyānī for Publishing and Distribution, 2011).

ʿAbdullāh, Muḥammad Ḥasan. "Love in the Arabic Heritage". (Kuwait: World of Knowledge Series, 1980).

Al-Muṭʿinī, ʿAbd al-ʿAẓīm. "Characteristics of Qurʾanic Expression and Its Rhetorical Features". (1st edition, Cairo: Maktabat Wahbah, 1992).

Periodicals:

Amqrān, Shaʿbān. "Argumentation Techniques in the New Rhetoric of

Chaim Perelman", (in Arabic). Laboratory of Renewing Research in Teaching Arabic 5, (2018): 223–236.

Basandī, Fāʾizah, and Mahsā Khalīliyān. "Exploring New Aspects of Arabic Romanticism in the Love Poetry of Abū Bakr ibn Dāwūd al-Aṣfahānī", (in Arabic). *Awraq Thaqāfiyyah Journal* 36, (2025): 317–336.

Al-Zahrānī, Muʿjib. "The Discourse of Love versus the Discourse of Savagery: Issues of Love and the Status of Women in Ṭawq al-Ḥamāmah by Ibn Ḥazm", (in Arabic). Mawārid Journal, University of Sousse 10, (2005): 49–74.

Shaʿrānah, al-Munṣif. "The Discourse of Love in Ṭawq al-Ḥamāmah by Ibn Ḥazm al-Andalusī", (in Arabic). *Journal of the Faculty of Arts and Humanities*, University of Kairouan 14, (2022): 203–216.

ʿAbd al-Salām, Saʿd. "Love between Religion and Philosophy in the Thought of Ibn Ḥazm al-Ẓāhirī", (in Arabic). Al-Ḥikmah Journal 9, (2011): 110–125.


الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
١٣٨
١٩٦

THE ISLAMIC UNIVERSITY JOURNAL OF ARABIC LANGUAGE AND LITERATURE PART 2

THE ISLAMIC UNIVERSITY JOURNAL OF ARABIC LANGUAGE AND LITERATURE

Part 2

Issue: 19
January - March 2026